ثنائية

البلاغة والأسلوب

"دراسة تطبيقية"

دكتور

نعمان عبد السميع متولي

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

٨١١,٠٠٩
م . ن

متولي، نعمان عبد السميع .
ثنائية البلاغة والأسلوب " دراسة تطبيقية" / نعمان عبد السميع متولى .-
ط١.- دسوق : دارالعلم والإيمان للنشر والتوزيع ،
١٧٢ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .
تدمك : 3-421-308 - 977 - 978
١. لغة عربية . أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٦٤٥ - ٢٠١٤.

الناشر : دار العلم والايمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة
هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2014

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

[سورة الجن: ١٣]

نصيحة

لا تَنْـه عـن خُلُـقٍ وتـأتي مـثله
عـارٌ عليـك إذا فعلْـتَ عظـيمُ
ابـدأ بنفسـك وانهها عـن غيِّهـا
فـإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقْبَل ما وعظت ويقتدى
بالعـلم منـك وينفـع التعـــليم

إهـداء

إلى الزائر الذي انتظرناه طـــويلا

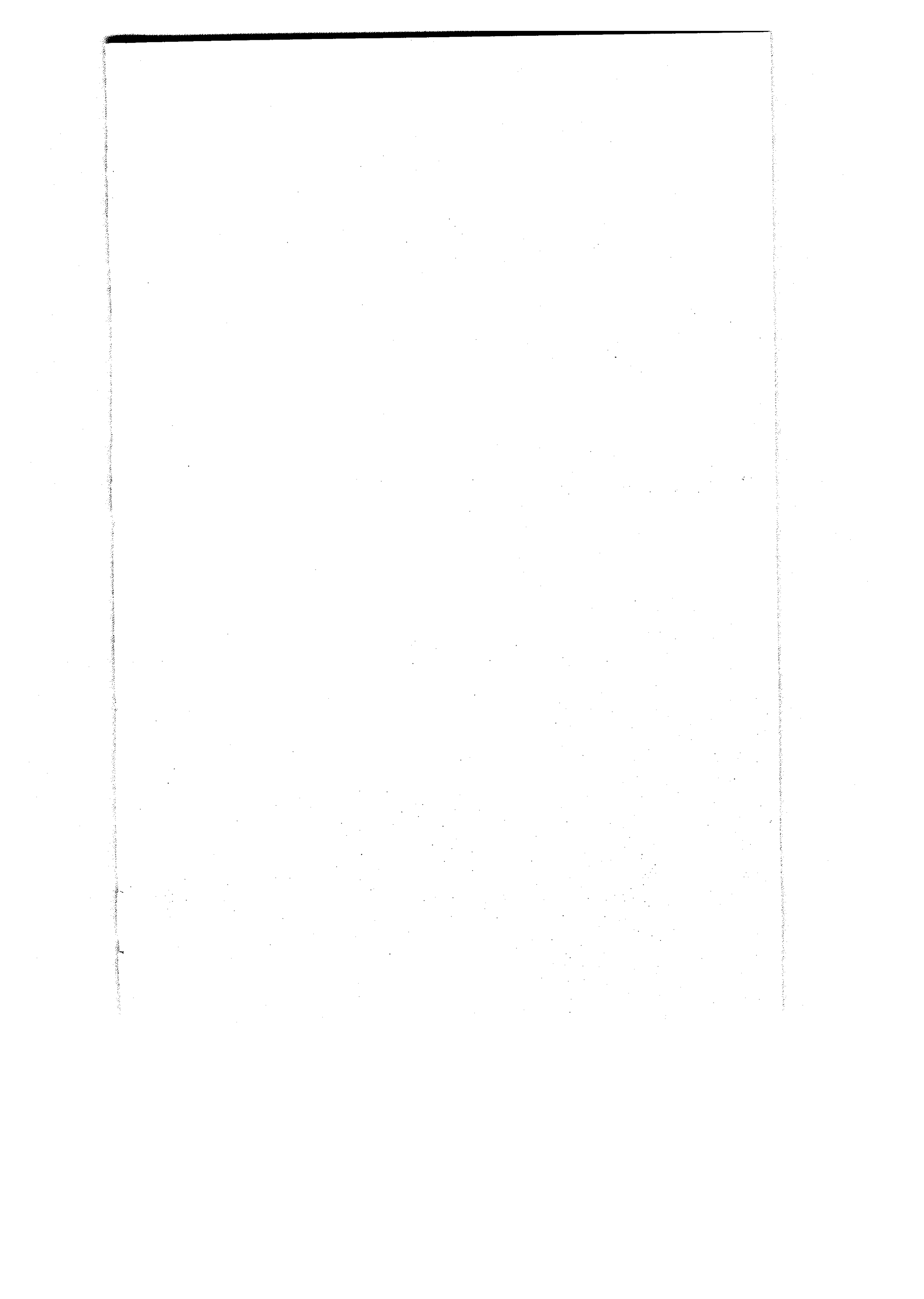
على أحر من الجمر..

إلى حفيدنا الأول

زياد ..إقبالة الحياة ، وبسمة الأمل..

وتغريدة البهجة ...

وإشراقة الغد الواعد ..



فهرس الموضوعات

تقديم

هذه مقالات في الأدب والنقد كتبتها في فترات متباعدة ، نشر بعضها في الصحف والدوريات الأدبية والنقدية ، رأيت أن أنظم خيطها في كتاب واحد آملاً أن يجد فيه القارئ غناء وفائدة .

وقد توخيت فيما كتبت تناول الموضوعات في إطار من التذوق ، وما فيها من أصالة وأحاسيس تسمو بالنفس ، وتمتع العقل والعين .

لذلك عمدت إلى النصوص الأدبية الراقية التي يغلفها جمال الصياغة ورقة المشاعر، وما تحمل من غايات سامية .

وقد وجدت في تراثنا الأدبي كنوزا تفيض جمالاً و فصاحة وسحرًا فاخترت منها ما يبل الصدى .

وفي منهجية ما كتبت ؛ قصدت في بعض الموضوعات تعريف القارئ بها وفي بعضها عرضت وجهة نظري مجردة من الهوى ، والانحياز لاتجاه أدبي أو قضية معينة .

وعلى الله قصد السبيل ومنه العطاء والعون

ونسأله التوفيق والسداد .

الدكتور

نعمان عبد السميع متولي



النيل

ملهم الشعراء

النيل ملهم الشعراء

النيل هبة الله التي حبا مصر بها ومن عليها به فأنبت ثراها ، وأخرج من أرضها مرعاها ، وطيبها وسواها ، وزين صبحها وضحاها ، فأدرك فضله الناس وتغنى الشعراء بجماله ، ولهج لسانهم بعذوبة مائه وتعال معي عزيزي القارئ نستعرض بعض ما كتب الشعراء، وهو كثير منه :

قصيدة النيل / للشاعر أحمد شوقي

مِن أيِّ عَهدٍ في القُرى تَتَدَفَّقُ
وَبِأَيِّ كَفٍّ في المَدائِنِ تُغدِقُ

وَمِنَ السَماءِ نَزَلتَ أَم فُجِّرتَ مِن
عَليا الجِنانِ جَداوِلاً تَتَرَقرَقُ

وَبِأَيِّ نَولٍ أَنتَ ناسِجُ بُردَةٍ
لِلضِفَّتَينِ جَديدُها لا يُخلَقُ

وَالماءُ تَسكُبُهُ فَيُسبِكُ عَسجَداً
وَالأَرضُ تُغرِقُها فَيَحيا المُغرَقُ

تُعيِي مَنابِعُكَ العُقولَ وَيَستَوي
مُتَخَبِّطٌ في عِلمِها وَمُحَقِّقُ

دانـــوا بِبَحـــرٍ بِالمكـــارِمِ زاخِـــرٍ
عَذبِ المَشـارِعِ مَـــدُّهُ لا يُلحَـــقُ

مُتَقَـيِّـدٌ بِعُـهـــودِهِ وَوُعـــــودِهِ
يَجري عَلى سَنَنِ الوَفـــاءِ وَيَصـدُقُ

يَتَقَبَّـلُ الـــوادي الحَيـــاةَ كَريمَـــةً
مِن راحَتَيـكَ عَميمَـــةً تَتَـدَفَّـــقُ

فـــي كُـلِّ عـــامٍ دُرَّةٌ تُلقـــى بِـــلا
ثَمَـنٍ إِلَيكَ وَحـــرَّةٌ لا تُـصــــدَقُ

حَـــولٌ تُسائِـلُ فيـهِ كُـــلُّ نَجيبَـــةٍ
سَبَقَت إِلَيكَ مَتــى يَحـولُ فَتَلحَـــقُ

وَالمَجـدُ عِـنـدَ الغـانِيـاتِ رَغيبَـــةٌ
يُبغى كَما يُبغى الجَمـالُ وَيُعشَـــقُ

زُفَّت إِلــى مَلِـكِ المُلـــوكِ يَحُثُّهـــا
ديـنٌ وَيَدفَعُهـا هَـوىً وَتَشَـــوُّقُ

فــي مِهرَجـــانٍ هَـــزَّتِ الـدُنيا بِـهِ
أَعطافَها وَاِختالَ فيـــهِ المَشـــرِقُ

مَجلُـــوَّةٌ فـــي الفُلـــكِ يَحـدو فُلكَهـــا
بِالشاطِئَينِ مُزَغـــرِدٌ وَمُصَـفِّـــقُ

أَلقَــت إِلَيــكَ بِنَفسِهــا ونَفيسِــهــا

وَأَتَتكَ شَيِّقَــةً حَــواهــا شَـيِّـــقُ

خَلَعَت عَلَيــكَ حَياءَهــا وَحَياتَهــا

أَأَعَزُّ مِــن هَذَيــنِ شَــيءٌ يُنفَــقُ؟

وَإِذا تَنــاهى الحُــبُّ وَاِتَّفَــقَ الفِــدى

فَالروحُ في بابِ الضَحيَّـــةِ أَليَــقُ

يا نيلُ أَنتَ يَطيبُ مــا نَعَــتَ الهُــدى

وَبِمَدحَـــةِ التَــوراةِ أَحــرى أَخلَــقُ

أَصلُ الحَضارَةِ فــي صَـعيدِكَ ثابِــتٌ

وَنَباتُها حَسَــنٌ عَلَيــكَ مُخَــلَّــقُ

وُلِدَت فَكُنتَ المَهــدَ ثُــمَّ تَرَعرَعَــت

فَأَظَلَّهــا مِــنكَ الحَــفِــيُّ المُشفِــقُ

مَــلأَت دِيــارَكَ حِكمَــةً مَأثورُهــا

في الصَخرِ وَالبَردي الكَريمِ مُنَبَّــقُ

وَبَنَت بُيوتَ العِلــمِ باذِخَـــةَ الــذُرى

يَســعى لَهــنَّ مُغَــرِّبٌ وَمُشَــرِّقُ

وَإِلَيكَ يُهدي الحَمــدَ خَلــقٌ حازَهُــم

كَنَفٌ عَــى سَــرِّ الــدُهورِ مُرَهَّــقُ

يَبنـــونَ لِلَّـــهِ الكِنــانَـــةَ بِالقَـنـــا

وَاللهُ مِـن حَـولِ البِنـاءِ مُوَفِّـقُ

أنظر إليه في النص السابق يتحدث عن نهر النيل وأمواجه المتلاطمة ويسائله في دهشة وإعجاب ، سؤال العارف الذي يدعي التجاهل : كم مضى عليك من الوقت وأنت هنا تجري بين المدن والقرى والحواضر وأي المدن تلك التي أفضت عليها بريك ، وظللتها بروائك ؟ ورويت عطش أهلها؟ وهل أتى من ماء السماء (المطر) أم أنه جاء من أعالي الجنت ونبع من هناك نبعا صافيا رائقا سلسبيلا ؟ويكمل الشاعر تساؤله حول النهر فيقول : أيها النهر من أي عين أنت فضت ومن أي مزنه وغيمة جئت وأي ديمة تلك التي احتملتك فيها لتمطر بك ؟ وربما تكون طوفانا فاضت به إحدى البحيرات فكونتك ثم ينتقل الشاعر إلى وصف أثر النيل على ما يجاوره من أرض فيصف الغلالة التي يصنعها هذا النهر على ما حوله من مساحات على جانبي الوادي فتبدو في ثوب قشيب وحلة لا تبلى .

ثم يتحدث عن احتفال المصريين بالنيل وما يسمى (يوم وفاء النيل) حيث كان الفراعنة في هذا اليوم ينتقون فتاة جميلة ، ويزينونها بالذهب والحلي ، ثم يلقون بها إليه اعتقادًا منهم أنها تزف إليه .

وشوقي إذ يتناول هذه الفكر ، فإنه يعرضها بأسلوب جذاب ، ولفظ فصيح وصور خلابة .

وهذه قصيدة أخرى له يتغنى فيها بجمال النيل وعذوبته

النيل العذب للشاعر أحمد شوقي

النيـــلُ العَـــذبُ هُـــوَ الكَـــوثَر
وَالجَنَّـــةُ شـــاطِئُهُ الأَخضَـــر

رَيّـــانُ الصَـــفحَةِ وَالمَنظَـــر
مـــا أَبهـــى الخُلـــدَ وَمـــا أَنضَـــر

البَحـــرُ الفَيّـــاضُ القُـــدسُ
الســـاقي النـــاسَ وَمـــا غَرَســـوا

وَهـــوَ المِنـــوالُ لِمـــا لَبِســـوا
وَالمُـــنعِمُ بِـــالقُطنِ الأَنـــوَر

جَعَـــلَ الإِحســـانَ لَـــهُ شَـــرعا
لَم يُخـــلِ الـــوادِيَ مِـــن مَرعـــى

فَتَـــرى زَرعـــاً يَتلـــو زَرعـــا
وَهُنـــا يُجنـــى وَهُنـــا يُبـــذَر

جـــارٍ وَيُـــرى لَـــيسَ بِجـــارِ
لِأَنـــاةٍ فـــيهِ وَوَقـــارِ

يَنصَـــبُّ كَتَـــلٍ مُنهـــارِ
وَيَضِـــجُّ فَتَحسَـــبُهُ يَـــزأَر

حَبَشِـــيُّ اللَـــونِ كَجيرَتِـــهِ
مِـــن مَنبَعِـــهِ وَبُحَيرَتِـــهِ

صَبَغَ الشَطَّين بِسُمرَتِهِ

لَوناً كَالمِسكِ وكَالعَنبَر

وتعالوا بنا مع شاعر الجندول ، وقد استقل قاربا ، وراح يتجول فوق ماء النيل ، يحاوره حينا ، وبصف ماءه حينا ، ويجتر ذكرياته عن النيل أيام الفراعنة فتأمل ما كتب :

الجندول

للشاعر علي ـ حمود طه

أيـن مـن عيني هاتيك المجالي ؟

ياعروس البحر ، ياحلم الخيال

أين عشاقك سمار الليالي ؟

أين من واديك يا مهد الجمال

موكب الغيد وعيد الكرنفال

وسرى الجندول في عرض القتال

بين كأس يتشهى الكرم خمره

وحبيب يتمنى الكأس ثغره

التقت عيني به أول مره

فعرفت الحب من أول نظره

أيـن مـن عيني هاتيك المجالي؟

ياعروس البحر ، ياحلم الخيال

مر بي مستضـحكا فـي قـرب سـاق
يمـزج الـراح بأقـداح رقـاق

قـد قصـدناه علـى غيـر اتفـاق
فنظرنـا ، و ابتسـمنا للتلاقـي

وهو يسـتهدي علـى المفـرق زهـره
ويسـوي بيد الفتنة شعره

حـين مسـت شـفتي أول قطـره
خلتـه ذوب فـي كـأسي عطـره

أيـن مـن عينـي هاتيـك المجـالي؟
ياعروس البحر ، يا حلـم الخيـال

ذهبـي الشـعر ، شـرقي السـمات
مرح الأعطـاف ، حلـو اللفتـات

كلما قلـت لـه : خـذ . قـال : هـات
ياحبيـب الـروح يا أنـس الحيـاة

أنا مـن ضـيع فـي الأوهـام عمـره
نسـي التـاريخ أو أنسـي ذكـره

غيـر يـوم لـم يعـد يـذكره غيـره
يـوم أن قابلتـه أول مـرة

أيـن مـن عينـي هاتيـك المجـالي؟
ياعرو، البحـر، يـاحلم الخيـال

قـــال: مـــن أيـــن ؟ وأصـــغي ورنـــا

قلت : من مصر ، غريـب ههنـــا

قـــال: إن كنت غـــــــــريبـــا فأنـــا

لم تكن فينيســـــــيا لي موطنـــا

أيـــن منـــي الآن أحـــلام البحيـــرة؟

وسماء كسـت الشـطآن نضـره

منزلـــي منهـــا علـــى قمـــة صـــخره

ذات عين من مـعين المـاء ثـره

أيـــن مـــن فارســـوفيا تلـــك المجـــالي

ياعروس البحـــر، يـــاحلم الخيـــال

قلت, والنشـــوة تســـري فـــي لســـاني :

هاجت الذكرى ، فأين الهرمـــان ؟

أيـــن وادي الســـحر صـــداح المغـــاني؟

أين ماء النيل ؟ أيـــن الضـــفتان ؟

آه لـــو كنـــت معـــي نختـــال عبـــره

بشـــــــراع تسبح الأنجـــم إثـــره

حيث يروي المـــوج فـــي أرخـــم نبـــره

حلم ليـــل مـــن ليـــالي كليـــوبتره

أيـــن مـــن عينـــي هاتيـــك المجـــالي ؟

ياعروس البحـــر، يـــاحلم الخيـــال

أيهـــا المـــلاح قـــف بـــين الجســـور
فتنـــة الـــدنيا وأحـــلام الـــدهور

صـــفق المـــوج لولـــدان وحـــور
يغرقون الليل فـــي ينبـــوع نـــور

لمحـــب لـــف بالســـاعد خصـــره ؟
ليت هذا الليـــل لا يطلـــع فجـــره

أيـــن مـــن عينـــي هاتيـــك المجـــالي ؟
ياعروس البحـــر، يـــاحلم الخيـــال

رقـــص الجنـــدول كـــالنجم الوضـــي
فاشد يـــاملاح بالصـــوت الشـــجي

شـــاعت الفرحـــة فيهـــا والمســـره
وجلا الجب على العشـــاق ســـره

يمنة مـــل بـــي علـــى المـــاء ويســـره
أن للجندول تحـــت الليـــل ســـحره

أيـــن يـــا فينيســـيا تلـــك المجـــالي ؟
أيـــن عشـــاقك ســـمار الليـــالي ؟

أيـــن مـــن عينـــي يامهـــد الجمـــال ؟
موكب الغيـــد وعيـــد الكرنفـــال ؟

يا عروس البحر ، ياحلم الخيال

أما الشاعر العبقري محمود حسن إسماعيل فيتحدث عن رحلة النيل الطويلة وسفره البعيد الممتد من أقصى الجنوب إلى أقصي الشمال ، يسير ولا يمل من المسير ، وتجيء الليالي والأيام وتمر وهو في مكانه فتي قوي جذاب كعهده معطاء فياض العطاء ، وهو في خلوده يمنح الكون النماء ، ويلهم الطير الغناء ، ويلهم البيان للشعراء ، **فتأمل قول الشاعر** :

"النهرُ الخالد"

للشاعر "محمود حسن إسماعيل"

مُســــافرٌ زادهُ الخـــيال

والسحرُ والعطـرُ والظِــلالُ

ظمــآن والكــأس فــي يديــهِ

والحب والفـن والجمــالُ

شــابت علــى أرضــهِ الليـالي

وضــيّعت عُمرهــا الجبــالُ

ولم يــزل يَنشُـدُ الديــارا

ويســألُ الليــلَ والنهــارا

والنــاسُ فــي حبِّــهِ سُكــارى

هامــوا على شَـطهِ الرَحــيب

آهِ علــى ســرك الرهيــب

وموجكَ التائهِ الغـــريب

يا نيلُ يا سَــاحرَ الغيوب

يـــا واهِـــبَ الخُلـــدِ للزمـــان
ياســاقيَ الحـــبِّ والأغـــاني

هـــاتِ اســقني واسقـــني ودعنـــي
أهيم كالطير فـــي الجِنـــــان

يا ليتني مــوجةٌ فأحـــــــكي
إلى لياليك مـــا شجـــاني

وأغتدي للريـــــــــــاح جارا
وأسـكب النـــورَ للحيـــارى

فإن كـواني الهـــوى وطـــارا
كانــت ريـــاح الـدجى طبيبـي

آهِ على ســـــــرك الرهيـب
ومَوجِــكَ التائـــه الغريـــب

يا نيلُ يا سَاحِرَ الغيوب

ســمعت فـــي شـطك الجمـــيل
مـــا قالـــت الــريح للنخيــل

يســـبح الطيـــرأم يغنـــي
ويشـــرح الحـــب للخميــل

وأغصـــن تلـــك أم صـــبايا
شربز مـــن خمـــرة الأصـيل

وزورق بالحنيـــــــن ســـــارا

أم هــــذه فرحـــة العـــذارى

تجـــري وتجـــري هـــواك نــــارا

حملــت مــن ســحرها نصــيبي

آهٍ علـــى ســـــرك الرهـــــيب

وموجــــك التائـــه الغريـــب

يـ نيل يا ساحــــر الغيوب

وها هو الشاعر محمد التهامي يحدثنا في إعجاب عن عطاء النيل وكيف يحيل الرمال خضرة ونماء، ويهبها أسباب الحياة بأمر من الله الخالق القادر فاستمع لما قاله في :

قصيدة نيلنا العظيم "للشاعر محمد التهامي"

طــف بالرمـــال وأحــــيها يـــا نـيـــل

مـــا أنــــت يـــا ســـر الحيـــاة بخيــل

وانثـــر بهـــا القبـــل العـــذاب علـــى الثـــرى

يبعـــــث مواتـــــا فوقتهـــــا التقبيـــــل

أجـــــراك ربـــــك بالحيـــــاة وطالمــــــا

نبتـــت حيـــاة النـــاس حيـــث تســــيل

وحبـــاك قـــدرة صـــانع هـــذا الثـــري

نبتـــت حـــياة النـــاس حيـــث تســـيل

فمـــضــــــت يمينك للجبـــال تهيـــل

فـــاذا بهـــا وهـــي الشـــــوامخ تنحنـــي

واذا بهـــا فـــي راحتيـــك ســـهول

وإذا الصـــحاري القفـــر تفـــتح صـــدرها

وتصـــول انـــت بصـــدرها وتجـــول

وتحـــيلها وهـــي العبـــوس بشـــاشة

خضـــراء يقطـــر ريقهـــا المعســـول

وجـــرى النمـــاء وراء خطـــوك مـــا اســـتوى

يمضـــي وإن مـــال المســـير يميـــل

أبدعـــت حـــين بنيتهـــا مزدانـــة

مـــا فـــاتك التـــزيين والتجـــميل

والناس حـــولك قد ملكت نفوســـهم

وتحيـــرت فيمـــا صنعـــت عقـــول

واليـــوم حـــين رأيـــت شـــعبك قـــد غـــدا

حـــرا وأشـــرق فجـــره المـــأمول

لـــم تـــرض أن يحيـــا بأرضـــك أهلهـــا

والخيـــر فـــي يـــدهم هنـــاك ضـــئيل

فخفضـــت رأســـك فـــي ســـمو بـــالغ

للســـد يحـــفـــظ مائنـــا ويحـــول

ويســـيل خـــيرك كلـــه فـــي أرضـــنا

مـــا ذاك يـــا ســـر الحـــياة قلـــيل

ويظل النيل مصدر إلهام الشعراء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثنائية التواصل بين المبدع والمتلقي

عبر عصور من النتاج الأدبي المتميز في مسيرة أدبنا العربي كانت وما تزال العلاقة بين المبدع والمتلقي مثار تفكير وجدل ، المبدع ينظر إليها من زاويته وفق رؤيته وثقافته ومعتقده ، والناقد ينظر إليها من زاوية توجهه وطبيعة نظرته النقدية : ميله إلى جانب أو إلى الآخر أو حياديته ، وبين هذا وذاك تبقى العلاقة سجالا بين الاستمرار والتواصل أو الجف· الانفصال .

وواضح أن عملية التواصل تقوم على ثلاثة أجزاء : المبدع – العمل الأدبي – المتلقي . والشاعر أو الناثر – كونه مبدعا ساعة المخاض أقصد ساعة الإبداع – يكون تحت تأثير ما يدور في نفسه من انفعالات وما يقيمه من عناصر يشكل بها عمله الأدبي ، في هذه اللحظة بالذات لا يكون المتلقي في حسبانه ، ومع ذلك فهو الجزء المهم في منظومة العمل الأدبي ، لكونه الحكم الذي يثمن ما يقع تحت عينيه من نثر أو شعر .

ولأن العمل الأدبي هو وسيلة الاتصال بين المرسل والمرسل إليه فمن الضروري أن تتوفر له دواعي التوهج والقدرة على الإيحاء والتأثير، لذلك يحرص صاحب المنتج الأدبي وصانعه على تلمس ما يهم المتلقي وما يشغل باله وما يجول في خاطره ، من غير تملق أو مداهنة ، لأن القارئ من الذكاء بمكان يجعله يميز الخبيث من الطيب ، وعليه فمن اللازم اللازب أن يتحرى الأديب أو الشاعر أسس الجودة ، وعناصر التميز، ولا يتأتى ذلك إلاَّ لمن أوتي الموهبة ورزق مفاتيح البيان وأدرك مواطن التأثير، وعرف متى يقدم ومتى يؤخر، ومتى يثور ومتى يهدأ

وكيف يغير بعض الكلم عن مواضعه في غير إفراط أو تفريط ، لأن المتلقي – سواء أكان قارئا أم مستمعا – يهمه بالدرجة الأولى أن يسمع ما يشنف آذانه ، ويستولي على مجامع قلبه ، وأن تقع عينه على ما يروقه ، ويرقى به إلى مدارج النشوة والاستمتاع ، ويدرك أن الشاعر أو الناثر قد عبر في وضوح عما في نفسه .

والمبدع المطبوع هو وحده القادر على الإجادة بما أوتي من مجامع القوة والتمكن وبما امتلك من ناصية البيان والفصاحة ، ومن أوتي الفصاحة والبيان فقد أوتي خيرا كثيرا، " والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ،وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته، وتبينت في شعره رونق الطبع ووشي الغريزة " (١).

لذلك لم يكن بدعا أن يطلق النقاد على زهير(شاعر الحوليات) لحرصه ومكوثه طول العام في تنقيح شعره وتجويد صناعته ، ولم يكن حرصه هذا إلا لينال الحظوة والمكانة عند الجمهور، وحق لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يستعذب قوله:

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وأن يحكم على شعره بالجودة معللا ذلك بأنه شاعر " لا يعاظل في القوافي ولا يستخدم حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه " (٢) .

والمبدع الذكي يعرف جيدًا ما يرضي الجمهور، وما يستميله إليه ، ويعرف ما يتمتع به من ملكة الذوق ومعرفة جيد اللفظ من رديئه ، فيضرب على أوتار قلبه ماطاب من النغمات ، وما عذب من المعاني الشريفة ، وما سما من الأغراض

وهذا الذي يجعل الجمهور يفضل شاعرا على غيره ، وهو الذي حدا بابن قتيبة أن يضع الشعراء في طبقات ، ويقدم شاعرا على آخر.

وفي عصرنا الحديث يحرص الشعراء على إرضاء المتلقي ، ويهتمون به بل منهم من يبالغ في إرضائه ، حتى يكسب الحمد والثناء ، فهذا نزار قباني يبين حقيقة العلاقة بينه وبين جمهوره الكبير في كل مكان بأن "الشعر يد، و الجمهور باب ، و الشاعر الذي لا يتجه بشعره إلى أحد ، يبقى نائماً في الشارع " ويقول أيضا : "الشعر خطاب نكتبه إلى جهة ما ، و المرسل إليه عنصر هام في كل كتابة و ليس هناك كتابة لا تخاطب أحداً و إلا تحولت إلى جرس يقرع في العدم و أزمة الشاعر الحديث الأولى هي أنه أضاع عنوان الجمهور " (٣) .

وهو بذلك يبرز أهمية المتلقي ، وأنه دائما في اعتبار المبدع ، بل هو الوجهة التي يتجه إليها في شعره ،وأن الجمهور في رأيه "طفل طيب القلب، كثير البراءة ،وهو لكي يحب و يستأنس لا بد له من فهم ما يقال له ، فالأطفال لا يمنحون حبهم إلا لمن يفهمون طفولتهم و يملأون أيديهم بهدايا غير منتظرة "(٤).

أما ما يكون من جمود في العلاقة بين المبدع والمتلقي فمرده إلى أمور كثيرة منها ما يعتري العمل الأدبي من غموض ربما لعدم نضج التجربة عند المبدع أو لضعف فيه وعدم مقدرة منه ، وهو ما سماه ابن قتيبة بالشاعر المتكلف " والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه "(٥) وربما يكون جمود العلاقة لضعف الذائقة عند المرسل إليه ، وهذا أمر مهم في دعم التواصل

وقد فطن عبد القاهر الجرجاني إلى الذوق وأهميته ، يقول في دلائل الإعجاز : " اعلم أنك لن ترى عجبا أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم ، وذلك لأنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن ههنا نظما أحسن من نظم، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك ، تسدر أعينهم وتضل عنهم أفهامهم ، وسبب ذلك أنهم أول شيء عدموا العلم به نفسه ، من حيث حسبوه شيئا غير توخي معاني النحو " (٦) ويقول : " والداء في هذا ليس بالهين .. لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علما بها حتى يكون مهيئا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء " (٧) ، غير أن نزارًا يرجع انقطاع التواصل إلى المبدعين أنفسهم إذ يحيلون هذه القطيعة إلى أن " العصر مختلف عن شعرهم " (٨) ومن ثم يرون (أي المبدعين) أن " العلة ليست فيهم بل في الجمهور " (٩) ويستطرد نزار في بيان أسباب انقطاع العلاقة والتواصل إلى أن " الشاعر الحديث يقف في قارة و الناس في قارة و بينهما بحار من التعالي والغرور وعدم الثقة و بدلاً من أن تكون ثقافة الشاعر وسيلة للتفاهم و الاقتراب تصبح قلعة حجرية لا تفتح أبوابها للجمهور"(١٠) .

لقد كانت الفصاحة والتمكن في بناء العمل الشعري ، والقدرة على التأثير من دواعي الفخر والتباهي عند العرب ، وكان العي والحَصَرُ عيبا ، فهذا السموأل بن عادياء يتيه بفصاحة قومه التي لا ينكرها أحد :(١١)

وننكر إن شئنا على الناس قــولهم ولا ينكرون القول حــين نقــول

وحق للمتنبي أن يتيه بشعره ، وبما فيه من بليغ الكلم ، وعميق التجربة والخبرة بالحياة والحكمة، فأبصره من لا يرى وسمعه من لا يسمع فيفتخر قائلا :

أنا الذي نظر الأعمى إلــى أدبــي وأسمعت كلماتي من به صمم (١٢)

كما يبين العقاد منزلة الشاعر، وما في قلبه من لين ورحمة ورقة ويسمه بالرحمن في قوله :

والشعر من نفس الرحمن مقتــبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن (١٣)

والشعر في رأي العقاد لسان الحياة المعبر عن آلامها وآمالها ، ولولا ما يقوله الشعراء لغدت الحياة خرساء جامدة لا حياة فيها ، وأن حلو القول يبدد ظلمات الكون ، ويشرق جمالا وراحة في هجير الحياة وفي أرجائها ، يقول :

لــولا القــريض لكانــت وهــي فاتنــة

خرســاء لــيس لهــا بــالقول تبيــان

إلى بما يطويه كــتــمــــان الحيــاة

ولا القريض لكانت وهــي فاتنـــة

خرساء ليس لها بــالقول تبـــيـــان

إن ديمومة العلاقة ، واستمرار التواصل بين المتلقي والمبدع تقوم على مفردات جمة ، يعود أكثرها إلى المبدع نفسه ، فهو أدرى بما يكتب ، ويعرف خبايا نتاجه ، وعليه التزام الصدق (الانفعال الحقيقي) بالموضوع الذي يتناوله ، وأن يحسن بناء قصيدة ، حتى يكون له التأثير الفعال في المرسل إليه حيث كان ، وحتى يجني ثمرة ما أبدع إعجابا واستمرار تواصل ، وعلو منزلة .

الهوامش

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٤ ص١١٩.

(٣) الأعمال الكاملة (قصتي مع الشعر) نزار قباني ص٣٤.

(٤) السابق ص ٣٤.

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٦) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٢٩٠.

(٧) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٢٩.

(٨) الأعمال الكاملة (قصتي مع الشعر) ص ٣٥.

(٩) الأعمال الكاملة(قصتي مع الشعر) ص ٣٥.

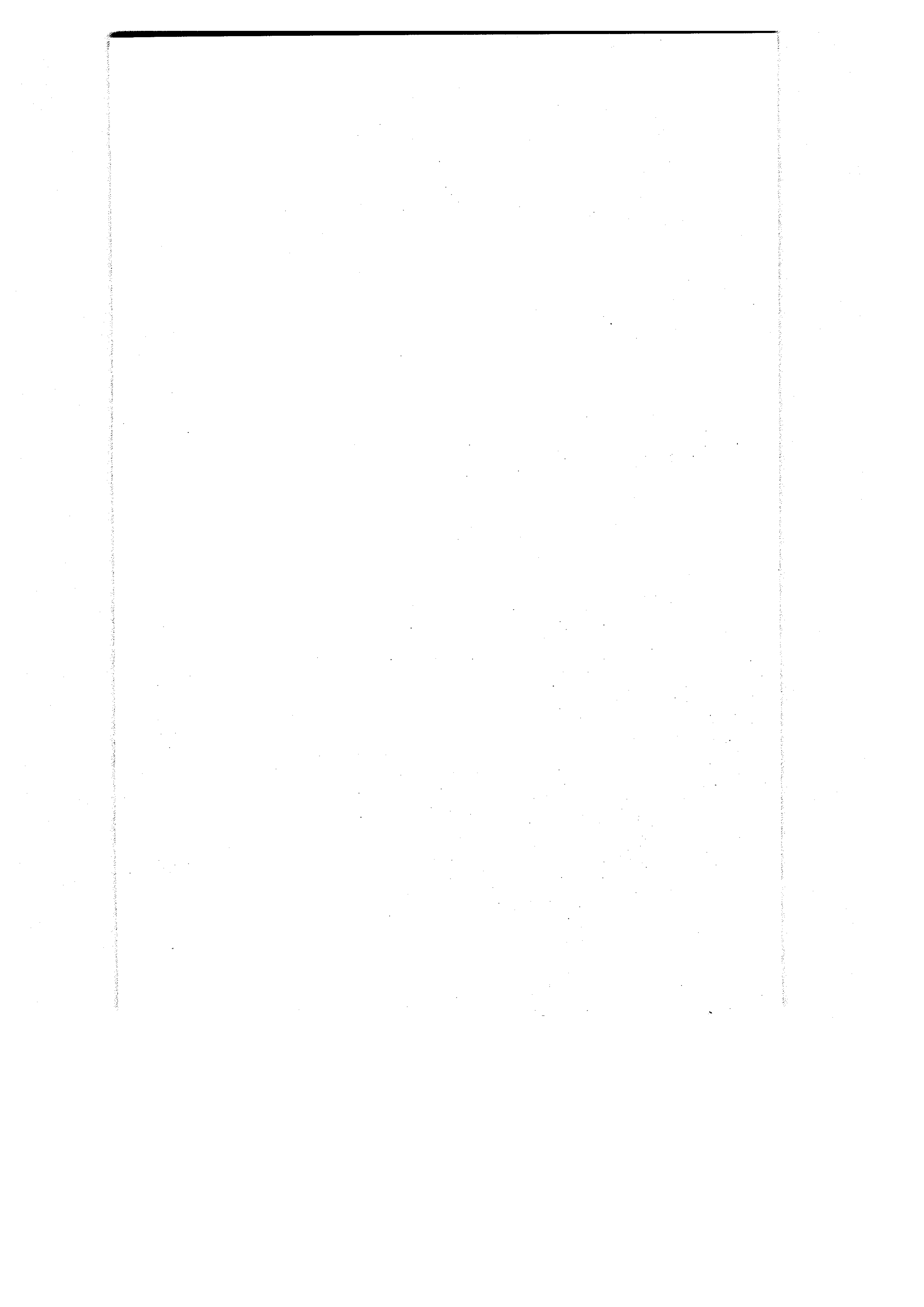
(١٠) السابق ص ٣٧.

(١١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج٣ ص ٧٧.

(١٢) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ج٢ ص ٢١٥.

(١٣) الأعمال الكاملة للعقاد (أعاصير مغرب) ص٥٩ .

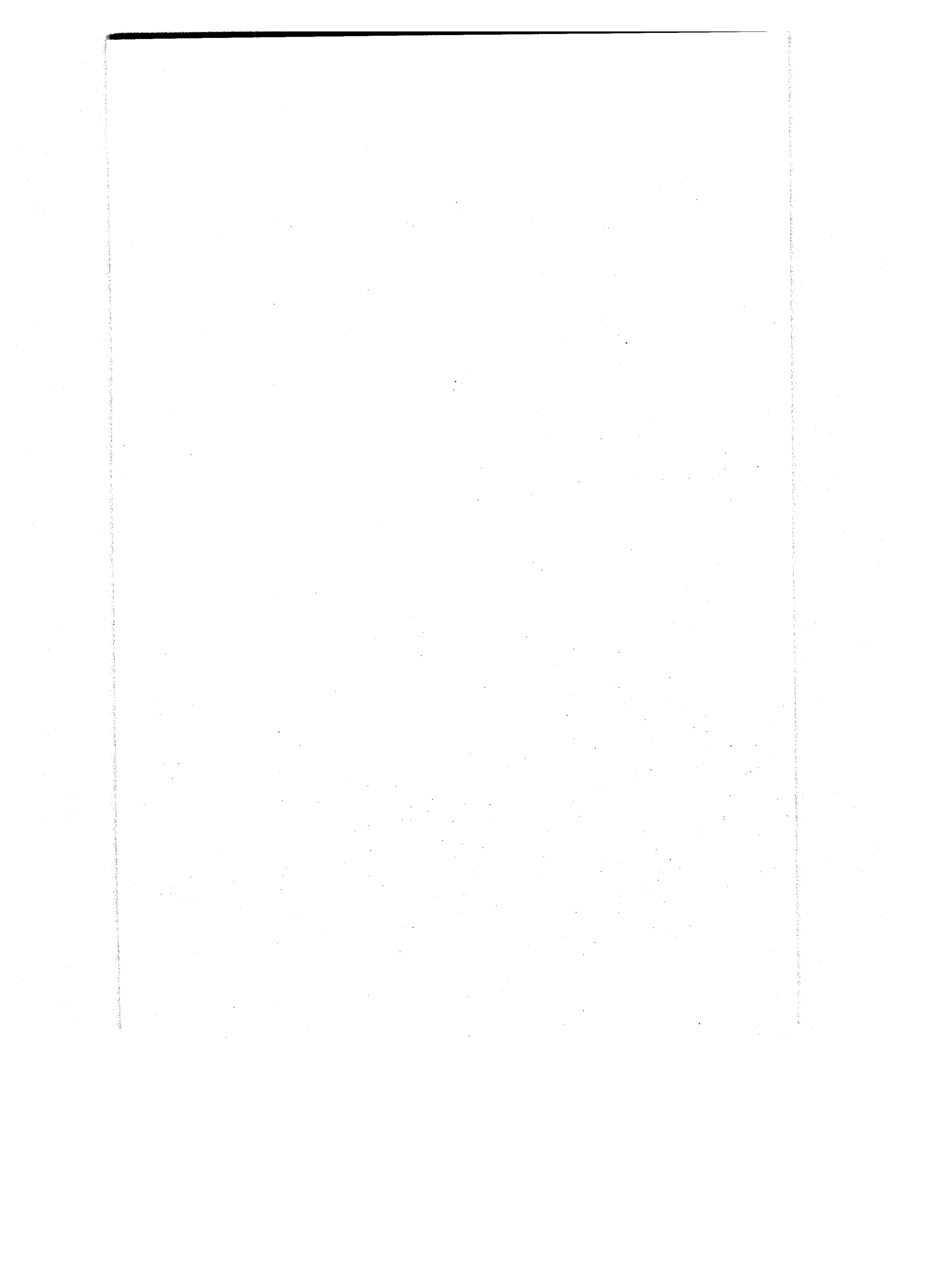
(١٤) السابق ص٥٩ .



دور الشعر

في

صناعة الثورات



دور الشعر في صناعة الثورات

لم يكن الشعر في يوم من الأيام بمعزل عن الحياة العامة وما يدور فيها ، وتولى الشعراء تدوين الأحداث اليومية التي تمر بهم ، يصفونها ، ويتناولون تفاصيلها ويتطرقون إلى ما هو أكثر ، فيعرضون لعلاقة القبائل ببعضها ، وبالأمم المجاورة وما يكتنف هذه العلاقة من تغيرات بالسلب أو بالإيجاب .

وكان الشعر نقطة الانطلاق التي انبعثت منها كبار الأحداث في البيئة العربية ، كما كان الشعراء محرك الثورة الأول ، وأدلة ذلك واضحة ملموسة تنبؤنا بها كتب الأدب ومصادر التاريخ .

فمنذ العصر الجاهلي والشعر في حراك مستمر وتفاعل مع ما مرت به جزيرة العرب من أحداث ، فهذا لقيط بن يعمر الأيادي العربي الأصل والدم والنشأة تتحرك في داخله رابطة الدم ، فيسارع إلى تنبيه قومه إلى الخطر المحدق بهم وبما يبيته لهم كسرى ، ولم يمنعه عمله كاتبا في ديوان كسرى من تنبيه قومه ، وتحذيرهم مما هم فيه من غفلة حرصا على عروبتهم وخوفا عليهم **يقول :**

مـــــالي أراكـــــم نيامـــــا فـــــي بلهنيـــــة
وقـــد تـــرون شـــهاب الحـــرب قـــد ســـــطعا
فاشـــفوا غليلـــي بـــرأي مـــنكم حصـــد
يصبح فؤادي به ريان قد نـــقـــعـــا
صـــونوا جيـــادكم وأجلـــوا ســـيوفكم
وجـــددوا للقســـي النبـــل والـــشـــرعـــا

لا تثمـــروا المـــال للأعـــداء إنهـــم
إن يظهروا يحتـوكم والـتلاد مـــعــــا
يـــاقوم إن لكـــم مـــن إرث أولكـــم
مجدا أحـاذر أن يفنـى وينـــقـــطـــعا
مـــاذا يـــرد علـــيكم عـــز أولكـــم
إن ضاع آخره أو ذل واتـــضـــعـــا؟
يـــاقوم لا تـــأمنوا إن كنـــتم غيـــرا
على نسـائكم كسـرى ومـا جمـــعـــا
هـــو الفنـــاء الـــذي يجتـــث أصـــلكم
فمن رأى مثل ذا رأيـا ومـن سـمـــعـــا؟
قومـــوا قيامـــا علـــى أمشـــاط أرجلكـــم
ثم أفزعوا قد ينـال الأمـن مـن فـــزعـــا
وقلـــدوا أمـــركم لله دركـــــــــم
رحب الذراع بـأمر الحـرب مضـــطـــلعا
هـــذا كتـــابي إلـــيكم والنـــذير معـــا
لمن رأي منكم رأيا ومـن سـمـــعـــا
وقـــد بـــذلت لكـــم نصـــحي بـــلا دخـــل
فاســـتيقظوا إن خيـــر العلـــم مـــا نفعـــا

فهو يذكرهم بعز أولهم ورفيع مجدهم ، طالبا منهم المحافظة عليه ، ومحذرًا من الغفلة ، وألا يغرهم رغد العيش ، وما هم فيه من نعمة ويسار ، كما يطلب منهم أن

يقلدوا أمرهم قائدًا قويا يقوم بأمرهم خير قيام ، وقد آتت النصيحة أكلها ، وتحقق له ما أراد .

وفي العصر الجاهلي – أيضا – عندما أراد الحارث بن عباد أن يحقن الدماء ويوقف الحرب التي استعرت بين بكر وتغلب ، وأودت بحياة أرواح كثيرة من القبيلتين ، فأرسل ابنا له يدعى (بجير) مع وفد من عقلاء قومه ، ليعرضوا على المهلهل قتل بجير ثأرا لكليب أخي المهلهل ويتوقف القتال بين القبيلتين ، و قبل المهلهل هذا العرض ، ولكنه أمسك ببجير وشد عليه فحز رقبته وقال عند قتله: (بؤ بشسع نعل كليب). ولما عاد الوفد وأخبروا الحارس بن عباد بما كان من أمر المهلهل وشطله ، ثارت حميته ، وقام إلى مهرة يسميها النعامة ، فجز ناصيتها ودعا قومه إلى القتال ، واندفع وهو ينشد مرتجلاً هذه الأبيات :

كل شيء مصيره لزوال	غير ربي وصالح الأعمال
وترى الناس ينظرون جميعا	ليس فيهم لذاك بعض احتيال
قل لأم الأغر تبكي بجيرا	ما أتى الماء من رءوس الجبال
لهف نفسي على بجير إذا ما	جالت الخيل يوم حرب عضال
وتساقى الكماة سما نقيعا	وبدت البيض من قباب الحجال
وسعت كل حرة الوجه تدعو	يا لبكر غراء كالتمثال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى	نملأ البيد من رءوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها	حين تسقى الدما صدور العوالي
أصبحت وائل تعج من الحر	ب عجيج الجمال بالأثقال
لا بجير أغنى قتيلا ولا ره	ط كليب تزاجروا عن ضلال

لم أكن من جناتها علم الله ... وإني بحرها اليوم صال

قد تجنبت وائلا كي يفيقوا ... فأبت تغلب علي اعتزالي

وأشابوا ذؤابتي ببجير ... قتلوه ظلما بغير قتال

قتلوه بشسع نعل كليب ... إن قتل الكريم بالشسع غال

يا بني تغلب خذوا الحذر إنا ... قد شربنا بكأس موت زلال

يا بني تغلب قتلتم قتيلا ... ما سمعنا بمثله في الخوالي

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال

قربا مربط النعامة مني ... ليس قولي يراد لكن فعالي

قربا مربط النعامة مني ... جد نوح النساء بالإعوال

قربا مربط النعامة مني ... شاب رأسي وأنكرتني العوالي

قربا مربط النعامة مني ... للسرى والغدو والآصال

قربا مربط النعامة مني ... طال ليلي على الليالي الطوال

قربا مربط النعامة مني ... لا غتناق الأبطال بالأبطال

قربا مربط النعامة مني ... واعدلا عن مقالة الجهال

قربا مربط النعامة مني ... ليس قلبي عن القتال بسال

قربا مربط النعامة مني ... كلما هب ريح ذيل الشمال

قربا مربط النعامة مني ... لبجير مفكك الأغلال

قربا مربط النعامة مني ... لكريم متوج بالجمال

قربا مربط النعامة مني ... لا نبيع الرجال بيع النعال

قربا مربط النعامة مني ... لبجير فداه عمي وخالي

قرباهـا لحـي تغلـب شـوقا لاعتناق الكمـاة يـوم القتـال

قرباها وقربا لأمـتـي در عـاد لاصا ترد حـد النبـال

قرباهـا بمرهفـات حـداد لقراع الأبطـال يـوم النـزال

ارتجل هذه الأبيات وهو يجوس خلال ديار تغلب حتى ثأر لابنه بجير وقتل منهم ما قتل .

ونزولا إلى العصر العباسي ، كان الشعر الشرارة التي أشعلت نكبة البرامكة ونبهت الخليفة هارون الرشيد من غفلته بعد أن استشرى نفوذ آل برمك حتى سيطروا على كل شيء ، وأمسكوا بمقاليد الأمور ، وصاروا يصرفون شؤون الدولة من وراء ظهر هارون الرشيد ، فما كان من المطلعين على حقيقة الأمر إلا أن يرسلوا له جارية تنشد على مسامعه **قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة :**

لَيـتَ هِنـداً أَنجَزَتنـا مـا تَعِـد

وَشَـفَت أَنفُسَـنا مِمّـا تَجِـد

وَاِسـتَبَدَّت مَـرَّةً واحِـدَةً

إِنَّمـا العـاجِزُ مَـن لا يَسـتَبِد

زَعَموهـا سَـأَلَت جاراتِهـا

وَتَعَـرَّت ذاتَ يَـومٍ تَبتَـرِد

أَكَمـا يَنعَتُنـي تُبصِـرنَني

عَمـرَكُنَّ اللَـهَ أَم لا يَقتَصِـد؟

صحيح أنه كانت هناك نية لهارون في تعديل الأمور، ولكنه عندما سمع غناء الجارية وهو يتجول في حراقته في نهر دجلة بجوار قصره انتبه من غفلته ، وقام من فوره واستدعى آل برمك ، وبلغت به الثورة ذروتها فلم يشفع لربيته توسلها إليه أن

يعفو عنها، وهي تقول له : يا سيدي أنا مربيتك ، وهذه خصلات من شعرك ، وكان ما كان وما حل بآل برمك من تنكيل .

ويبدو أن الرشيد قد ندم ، فقد روي عنه أنه كان يقول : لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا رجاء ، ووددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم .

واستمر الشعر يذكي أتون الثورة ، ويشعل أوارها في العصر الحديث فهذا الشاعر يتخذ من التهكم والسخرية وسيلة للإثارة والحض على التمرد ، استمع إلى الشاعر معروف الرصافي يقول :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا

ودعوا التفهم جانبا فالخير أن لا تفهموا

وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا

أما السياسة فاتركوا أبدا وإلا تندموا

إن السياسة سرها لو تعلمون مطلسم

والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا

من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم

فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم

لا يستحق كرامة إلا الأصم الأبكم

ودعوا السعادة إنما هي في الحياة توهم

فالعيش وهو منعم كالعيش وهـــــو مذمم

فارضوا بحكم الدهر مهــما كان فيه تحكــم

وإذا ظلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلمـــوا

إن قيل : هذا شهدكم مر فقولوا : علقــم

أو قيل إن نهاركم ليل ، فقولوا : مظلــم

أو قيل:إن ثماركم سيل، فقولوا : مفعم

أو قيل : إن بلادكم يا قوم ســـوف تقســم

فتحمدوا وتشكروا.وترنحوا وترنموا

المصادر

١- هارون الرشيد ، منصور عبد الحكيم ، دار الكتاب العربي ص ١٠٦ وما بعدها .

٢- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف .

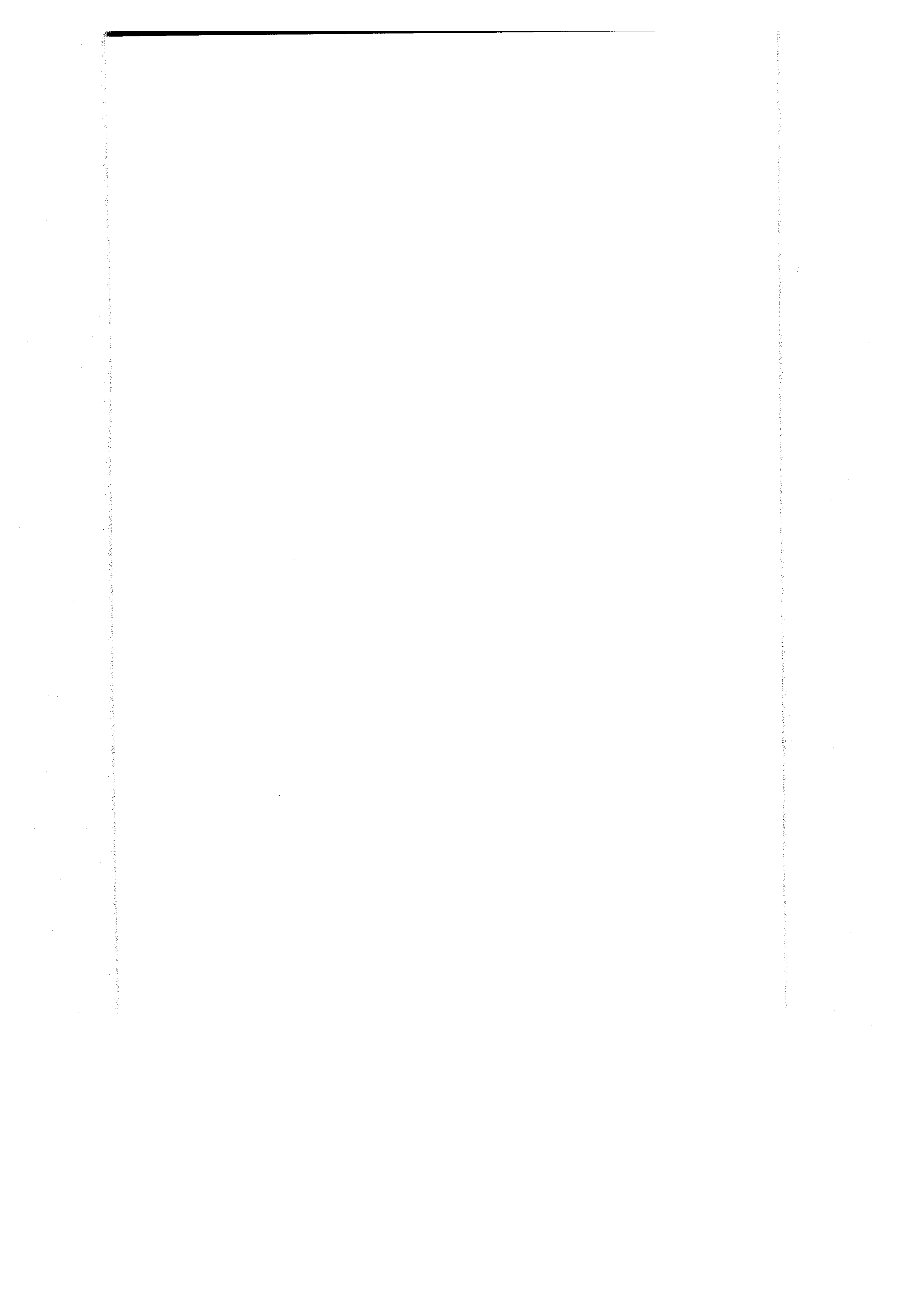
٣- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، شوقي ضيف ، دار المعارف .

٤- ديوان معروف الرصافي ، دار المعارف .

مواقف التوديع

في

الشعر العربي



مواقف التوديع في الشعر العربي

في أدبنا العربي مواقف كثيرة تتعلق بالجوانب الإنسانية وحياة الإنسان كمواقف الفرح والمناسبات السعيدة ، ومواقف الفخر والاعتزاز ، ومواقف الإعجاب ومواقف السخرية والتهكم ، ومواقف الكراهية والذم ، ومواقف الحزن والأسى وقد استفاض فيها الشعراء والأدباء ، فتناولوا أبعادها وما يكتنف الإنسان فيها من مشاعر وأحاسيس وما يعتمل في خاطره من هواجس وأفكار تعصف بالإنسان عصفا وتجتاحه من أقصاه إلى أقصاه .

في مثل هذه المواقف تختلط المشاعر وتتداخل الأحاسيس وتعتمل في الصدور فتفيض عبرات حارة محملة بلفح الجوى وشواظ الهجران .

إن المتأمل هذه اللحظات يجد عجبا ، فالنفس البشرية تألف الاجتماع وتأنس بالقرب واللقاء ، لأنها فيه تقر وتسعد وتحظى بالاطمئنان ، وتلك سمة فطر الله الناس عليها وأودعها في دخائل النفس البشرية ، فما تنفك تسعى للقاء جاهدة وتتمسك به ما وسعها التمسك ، لما في القرب من غنم وفائدة ، وتنفر النفس البشرية من التوديع وما يكتنفه من أسى وألم ، فتتحمله كارهة ، وتمر به متألمة وتعيش بعده جازعة مجروحة محترقة .

وحين تتأمل حياة الكائنات تجد ما يروعك ويملك عليك جماع نفسك فالطيور تهاجر آلاف الأميال بحثا عن الرزق ، ولكنها لا تتحمل الفراق كثيراً ، لذلك سرعان ما تعود لتحظى بالقرب واللقاء حيث ألفت وعاشت ، وكذلك الإنسان .

وعبر هذه الأسطر القليلة نلقي الضوء على مواقف الوداع في قصائد الشعراء الأقدمين، والمحدثين ونتأمل هذا الجانب العاطفي ونعرض بعض الشواهد والمواقف التي تذكرنا بأن حياة الإنسان رحلة تبدأ بالولادة وتنتهي بانتهاء الأجل ، وفي مشهد الوداع تسيل الدموع، وتتأجج المشاعر وتتهافت الأحلام، وبقدر ما تكون المودة والتآلف والانسجام حال اللقاء ، يكون الفراق أشبه بانفصال الروح عن الجسد وتبلغ المشاعر ذروة الانفعال وتحترق الأنفاس وتظلم الدنيا في عيني العاشق الولهان حتى يشعر كأن روحه فارقت جسده ، وقد برع فحول الشعر في العصر الجاهلي في تصوير هذه المواقف الإنسانية وما يعتري النفس لأن حياة العرب في الصحراء كانت قائمة على الحل والترحال فهذا الأعشى (ميمون بن قيس) وهو من شعراء المعلقات يبدأ قصيدته اللامية مودعاً صاحبته هريرة حين تهيأ الركب للرحيل ولم يعد من الوداع بد لكن هذا الموقف أضعفه فلم يجد قوة على قدرة الاحتمال **فقال** :

ودع هـريرة إن الركب مرتحـل   وهـل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

وهذا الشاعر الجاهلي يصور لنا حاله بعد فراق أحبته ، وكيف جلس شاردًا مفكرًا تسيل منه العبرات :

ظللت ردائي فوق رأسـي قاعـدا   أعد الحصى ما تنتهي عبراتـي

ويقول امرؤ القيس مصورا يوم الرحيل :

تـرى بَعَـرَ الآرامِ فـي عَرَصـاتِها

وقيعانِها كأنهُ حَـبُّ فُـلْفُـلِ

كـأني غـداةَ البَـيْنِ يَـوْمَ تَحَمّلَـوا

لدى سَـمُـراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنْظَلِ

وُقوفاً بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ

يقولونَ : لا تهلكْ أسًى وتَجَمَّلِ

وإنّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ

فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعوَّلِ؟

ويصور لنا ابن زريق البغدادي حاله ، وهو راحل عن زوجته التي تركها في بغداد مبتعدًا عنها بحثا عن الرزق بعد أن ضاقت به السُبل فسافر إلى الأندلس من أجل المال ليقيل عثرته فمات غماً وكمداً ولفظ أنفاسه هناك ، **فيقول** :

أستودع الله في بغداد لي قمرًا	بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني	صفو طيب الحياة وأني لا أودعه
كم قد تشفع بي أن لا أفارقه	وللضرورة حال لا تشفعه
وقد تشبث بي يوم الرحيل ضحى	وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب الصبر منخرق	عني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته	بالبين عني وجرمي لا يوسعه
رزقت ملكًا فلم أحسن سياسته	وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا	شكر عليه فإن الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته	كأساً أجرع منها ما أجرعه

ويعاتبه أصدقاؤه على ترك من يهوى ، فيستشعر الندم ، ويتمنى لو لم يفارقه ويرتحل عنه ويتحسر على ما كان منه ، **فيقول** :

كم قائل لي ذقت البين قلت له

الذنب والله ذنبي لست أدفعه

ألا أقمــت فكـــان الرشـــد أجمعـــه

لــوأنــني يوم بان الرشد أتبعــه

إنـــي لأقطـــع أيـــامي وأنفـــدها

بحسرة منه في قلـــبي تـــقطـــعه

مـــن إذا هجـــع النـــوام بـــت لـــه

بلوعة منه ليلـــي لســت أهجعــه

لا يطمــئن لجنبي مضطجع وكـــــذا

لايطمئن له مـــذ بـــت مضـــجعه

مـــا كنت أحســـب أن الـــدهر يفجعنـــي

بـــه ولا أن بـــي الأيـــام تفجعـــه

حتى جـــرى البـــين فيما بيننـــا بيـــد

عسراء تمـــنعـــني حـــقي وتمنعه

قد كنت من ريب دهري جازعـــاً فزعـــاً

فلم أوق الذي قد كنـــت أجزعـــه

وها هو يناشد منزله القديم متمنيا أن يرجع الزمان عهدًا مضى ، داعيا الله أن يحفظ من يهوى ، مبينا أنه مازال متذرعا بالصبر لعله يجد بعده فرجا مما آل إليه حاله .

بـــالله يـــامنزل العـــيش الـــذي درســـت آثـــاره

وعـــــــفت مـــــذ بنـــت أربعـــــــــه

هل الزمان مـــعيد فيك عـــيشتنا؟ أم الليـــالي التي أمضته ترجعه؟

في ذمة الله من أصبحت منزله وجاد غيث على مغناك يمرعه

من عنده لي عهد لا يضيعه كما له عهد صدق لا أضيعه

ومن يصدع قلبي ذكره وإذا جرى على قلبه ذكري يصدعه

لأصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه

علمًا بأن اصطباري معقباً فرجًا فأضيق الضيق إن فكرت أوسعه

عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

وإن تنل أحداً منا منيته فما الذي بقضاء الله يصنعه

ويقول البهاء زهير، مصورًا حالة محبوبته الجميلة، وقد وقفت تودعه باكية حزينة، وجلة خوف الوشاة، وخوف الرقيب وهو يكاد ينفطر أسى وألما، يقول :

جاءت تودعني والدمع يغلبها يوم
الرحيل وحادي البين منصلت
وأقبلت وهي في خوف وفي دهش
مثل الغزال من الأشراك ينفلت
فلم تطق خيفة الواشي تودعني ويحَ
الوشاة لقد قالوا وقد شمتوا
وقفت أبكي وراحت وهي باكية
تسيرعني قليلاً ثم تلتفت
فيا فؤاديَ كم وجدٍ وكم حُرَق
ويا زمانيَ ذا جور وذا عنت

أما (سلطان العاشقين) عمر بن الفارض ، على عادة المتصوفة ، يبين في بداية قصيدته أسفه – بعد رحيل أحبته عنه – لأنه لم يعطهم حقهم من الإنصاف والوصل .

وأنه لم يذق طعما للنوم بعد ارتحالهم :

قلبي يحـــــدثني بأنـــــك مـــــتلـــــفي
روحـــي فـــــداك عـــــرفت أم لـــم تعـــرف

لم أقـض حـقَّ هَـوَاكَ إن كُنـتُ الـذي — لم أقضِ فيهِ أسى ً، ومِثْلي مَن يَفي
ما لي سِوى روحي، وباذِلُ نفسِـهِ — في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ
فَلَئنْ رَضيتَ بها ، فقـد أسْـعَفْتَني — يا خـيبةَ المسعى إذا لمْ تسعفِ
يا مانِعي طيبَ المَـنامِ، ومـانحي — ثوبَ السَّقامِ بهِ ووجدي المـتلفِ
عَطفاً على رمَقي، وما أَبْقَيْتَ لـي — منْ جِسميَ المُضنى وقلبي المُدنَفِ

ثم يؤكد لمن يهوى – وقد ابتعد عنه – أنه باق على عهد الوصال ومواثيق المودة ، وانه لم يجد راحة في بعدهم عنه وشاهده في ذلك نجوم الليل التي يظل رفيقا لها في سهرها ، وكلما طاف بخياله مشهد التوديع تنهل دموعه مدرارة .

فالوَجْـــدُ بـــاقٍ، والوِصـــالُ مُماطِـــلي
والصّـــبرُ فـــانٍ، واللّقـــاءُ مُسَـــوِّفي

لم أخلُ من حَسدٍ عليكَ، فلاتُضعْ — سَهَري بتَشنيعِ الخَيالِ المُـرْجفِ
واسألْ نُجومَ اللّيلِ: هل زارَ الكَرَى — جَفني، وكيفَ يزورُ مَن لم يَعرِفِ ؟
لا غَروَ إنْ شَحّتْ بِغُمضِ جُفونهـا — عيني وسحّـــتْ بالدُّموعِ الذُّرَّفِ
وبماجرى في موقفِ التَّوديعِ مـنْ — ألمِ النّوى ، شاهَدتُ هَولَ المَوقِفِ

وأنظر إليه يرجو من يحب أن يصله ، فإن لم يكن وصلاً فهو راض بمجرد الوعد ، حتى ولو ماطل في الوفاء به ، فقط يقنعه مجرد الوعد لعله يطفئ ما يعتمل في نفسه من نار الجوى ، وقسوة البعد والهجران .

إن لم يكُنْ وَصْلٌ لَدَيكَ، فَعِـــدْ بهِ   أملي وماطلْ إنْ وعدتَ ولاتــف

فالمطلُ منكَ لديَّ إنْ عـــزَّ الوفا   يحلو كوصلٍ منْ حبيبٍ مسعـفِ

أهــفــو لأنفاسِ النَّســيمِ تعــلَّة   ولوجهِ منْ نقلتْ شذاهُ تشــوُّفي

فلَعَــلَ نارَ جــوانحي بهُبوبهــا   أنْ تَنطَفي، وأوَدّ أن لا تنطَــفي

يا أهــلَ ودِّي أنتمُ أملي ومــنْ   ناداكُمُ يا أهْلَ وُدّي قــد كُــفي

وها هو يناشد أحبابه ويطلب منهم العودة إلى عهد الوفا كرما وتلطفا به وعطفا على حاله ، ثم يقسم بحياتهم مبينا أنه لو أعطى روحه لمن يبشره بقدومهم لم يكن منصفا ، ويذكرهم بحقيقة مهمة ، وهي انه أخفى حبهم خوف الوشاة ،فنحل جسمه وصار خيالا ، حتى كاد أن يختفي لشدة نحوله ، **يقول** :

عُودوا لَما كُنتمْ عليهِ مــنَ الوَفــا   كرماً فإنِّي ذلكَ الخــلُ الــوفي

وحياتكمْ وحياتكمْ قســـــماً وفي   عُــمري بغــيرِ حياتِكُمْ ، لم أحلفِ

لوْ أنَّ روحي في يــدي ووهبتهــا   لمُبَشّري بِقَــدومِكُمْ ، لم أنصفِ

لا تحسبوني في الهــوى متصــنِّعًا   كلفي بكمْ خــلقٌ بغــيرِ تكلُّــفِ

أخفيتُ حبَّكمُ فأخفاني أسىً حتــى   لعَــمري،كِدتُ عــني أخــتَف

وفي قصيدة للشاعر(عمر بهاء الدين الأميري) ، تأمل مشاعره وأحاسيسه بعدما ابتعد عنه أولاده الثمانية وسافروا إلى المصيف في حلب ، **يقول** :

بالأمـــس كانوا ملء مـــنزلنا   واليوم ويح اليوم قــد ذهــبوا

ذهبوا أجل ذهبوا ومسكنهم في القلب ما شطوا وما قربوا

إني أراهم أينما التفتت نفسي وقد سكنوا وقد وثبوا

وأحس في خلدي تلاعبهم وفي الدار ليس ينالهم نصب

وبريق أعينهم إذا ظفروا ودموع حرقتهم إذا غلبوا

في كل ركن منهم أثر وبكل زاوية لهم صخب

في النافذات زجاجها حطموا وفي الحائط المدهون قد ثقبوا

في الباب قد كسروا مزالجه وعليه قد رسموا وقد كتبوا

في الصحن فيه بعض ما أكلوا في علبة الحلوى التي نهبوا

في الشطر من تفاحة قضموا في فضلة الماء التي سكبوا

إني أراهم حيثما اتجهت عيني كأسراب القطا سربوا

حتى إذا ساروا وقد نزعوا من أضلعي قلبا بهم يجب

الفيتني كالطفل عاطفة فإذا به كالغيث ينسكب

قد يعجب العذال من رجل يبكي ولو لم أبك فالعجب

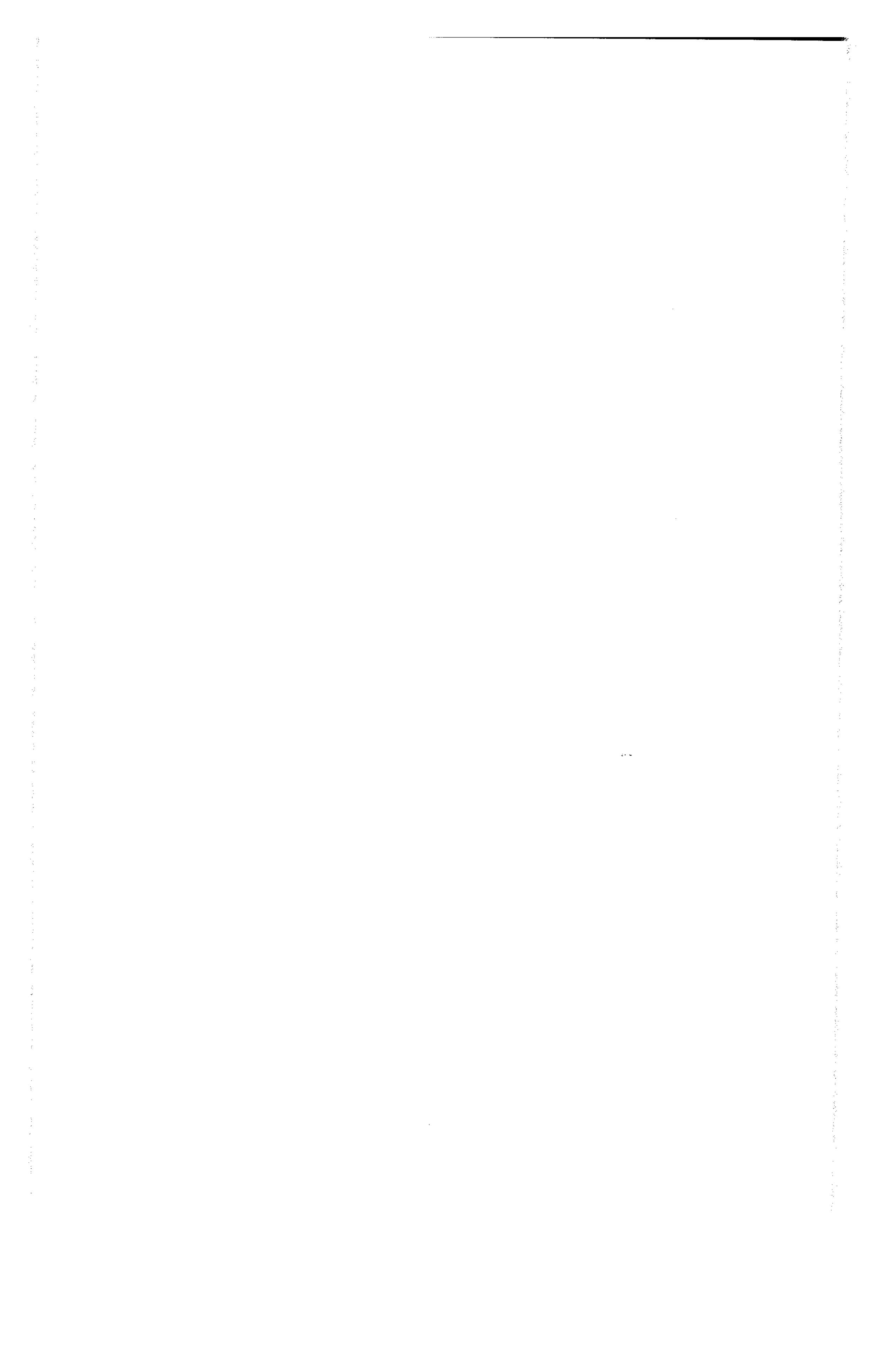
هيهات ما كل البكا خور إني و بي عزم الرجال أب

وقد يكون وداعا لإنسان مكروه ، مثل ما قاله أمير الشعراء في وداع اللورد كرومر القائد الإنجليزي الذي كان في مصر ساعة الاحتلال الإنجليزي لها عندما رحل عن مصر، ودعه قائلاً :

لما رحلت عن البلاد تشهدت

فكأنك الداء العياء طويلا

أوسعتنا يوم الوداع إهانة



جدلية الإبداع

بين التقييد والانطلاق

الإبداع الأدبي عملية معقدة ذات مراحل متشابكة يمر بها المبدع ويعيش تحت وطأتها حتى يخرج نتاجه إلى حيز الوجود جسدًا متكاملاً ، واضح المعالم ، بين السمات ويصبح بين يدي المتلقي .

في هذه المراحل تتشابك وتتداخل أمور كثيرة أبرزها الجانب اللغوي متمثلاً في ثروة المبدع اللفظية والأسلوبية وما يضبط نظمها من قواعد النحو والعروض والجانب النفسي ممثلا في مدى انفعال صاحب العمل الأدبي ومدى تأثره بموضوع عمله واستعداده للكتابة فيه وهو ما يطلق عليه التجربة الشعرية يضاف إلى ذلك الموهبة والاستعداد وما لدى المبدع من مخزون ثقافي وخبرات حياتية .

ولا يستطيع الناقد أو الباحث فصل مرحلة عن الأخرى ، فكلها تتشابك إلى حد كبير يصعب معه الإمساك بجانب دون الآخر ، حتى أن المبدع نفسه لا يدري من أمر هذه المراحل شيئا ، كل ما يدريه أنه يقع تحت تأثيرها فتتفاعل ثروته اللغوية مع حالته النفسية ودرجة انفعاله قوة أو ضعفا ، وقد اعترف بذلك نزار قباني إذ يقول " أنا لا أكتب القصيدة ، إنما هي التي تكتبني " مشيرًا إلى حالة المبدع حال إنتاج عمله .

والحقيقة التي ينبغي ألا نغفلها هي ما يتاح للمبدع من حرية أو ما يقع تحته من قيود في التعامل مع تجربته ، وأعني بالقيود هنا المؤثرات وإطار التجربة

وهي أغلال يضع المبدع نفسه فيها برغبته وبرضا منه ، أما ماعدا ذلك فهو حر طليق ، يغرد كيفما شاء كالطائر ينتقل من فنن إلى فنن .

وفي ثنايا مصادر الأدب وبطون المراجع ما يؤكد حرص الشاعر في كل زمان على حريته ، وإعطاء نفسه مساحة من الانطلاق تتيح له تكوين نتاجه وتحديد معالمه ، ومنهم من غالى في هذه الحرية فخرج على نظام القبيلة والمجتمع من حوله وأبى إلاّ العيش في الخلاء ، حيث الفضاء الرحب والمدى الواسع من حوله كالشعراء الصعاليك:

الشنفرى ، والسليك بن السلكة ، وعروة بن الورد، وتأبط شرا وغيرهم ، وهذا الشنفرى في لاميته يقول مشيدا بحريته التي ينشدها ، وأصحابه الذين اتخذهم عوضا عن أهله ، فهو ينبه بني أمه أنه غير راغب فيهم ، وأنه سيميل لغيرهم ، فهو كريم يأبى المذلة وأن يعيش مهانا في قومه ، وفي الأرض متسع ومأوى لكل كريم يخاف من الهجر واعتزال الناس ، يقول :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِي صُدُورَ مَطِيكُم
فَإِنّي إِلَى قَومٍ سِوَاكُم لأَمْيَلُ
فَقَد حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللّيلُ مُقمِرٌ
وَشُدَّت لِطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرحُلُ
وَفِي الأَرضِ مَنْأَىٌ لِلكَرِيم عَنِ الأَذَى
وَفِيَهَا لِمَن خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمُركَ مَا فِي الأَرضِ ضِيقٌ عَلَى امرِىءٍ
سَرَى رَاغِبًا أَو رَاهِبًا وَهوَ يَعقِلُ

وتعبيرًا عن الحرية فقد اتخذ لنفسه أهلا غير أهله ، يرى فيهم الخير ، يحفظون سره ، ولا يخذلونه إذا ارتكب جناية أو اقترف ذنبا :

وَلِـــي دُونَكُـــم أهلُـــونَ سِـــيدٌ عَمَلَّـــسٌ
وَأرقَـــطُ ذُهلُـــولٌ وَعَرفَـــاءُ جَيَـــلُ
هُـــمُ الـــرَّهطُ لاَ مُســـتَودَعُ السِـــرِ ذَائِـــعٌ
لَـــدَيهِم وَلا الجَـــاني بِمَـــا جَـــرَّ يُخـــذَلُ
وَكُـــلٌّ أبِـــيٌّ بَاسِـــلٌ غَيـــرَ أنَّنِـــي
إِذَا عَرَضَـــت أولَـــى الطَرَائِـــدِ أبسَـــلُ
وَإِن مُـــدَّت الأيـــدي إِلَـــى الـــزَّادِ لَـــم أكُـــن
بِـــأعجَلِهِم إِذ أجشَـــعُ القَـــومِ أعجَـــلُ
وَمَـــا ذَاكَ إِلا بَســـطَةٌ عَـــن تَفَضُّـــلٍ
عَلَـــيهِم وَكَـــانَ الأفضَـــلَ المتَفَضِّـــلُ (١)

ويبين أن السبب في ابتعاده عنهم أنه لم يجز بالحسنى منهم ، ولم يجد في قربهم ومصاحبتهم ما يدعو إلى المصاحبة :

وَإِنِّي كَفَانِي فَقدَ مَن لَـيسَ جَازِيـا بِحُسنيَ وَلا فِـي قُربِـهِ مُتَعَلَّـلُ

فأصحابه الذين ارتضى صحبتهم ثلاثة : قلبه النابض المحب ، وسيفه القاطع المصلت ، ومهرته الطويلة العنق السريعة :

ثَلاَثَـــةُ أصـــحَابٍ: فُـــؤَادٌ مُشَـــيَّعٌ
وَأبـــيضُ إِصـــلِيتٌ وَصَـــفرَاءُ عَيطَـــلُ
هَتُـــوفٌ مِـــنَ المُلـــسِ المتُـــونِ يَزِينُهَـــا
رَصَـــائِعُ قَـــد نِيطَـــت إِلَيهَـــا وَمِحمَـــلُ

إِذَا زَلّ عَنهَـــــا السَّـــــهمُ حَنَّـــــت كَأَنّهَـــــا
مُـــــرَزّأَةٌ عَجلَـــــى تُـــــرِنُ وَتُعـــــوِلُ

وما فعله الشنفرى وغيره من شعراء الصعاليك كان الدافع إليه حب الحرية والانطلاق ، فهم لا يرتضون القيود ، ولا يحبون أن يفرض عليهم شيء .

وهذا المتنبي أمير الشعر العباسي ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، ظل يغرد في بلاد الشام في بلاط سيف الدولة الحمداني ، يصدح بأعذب الألحان ، ويشنف الآذان ، فلما أهين في مجلس الشعر ، ولم ينصفه ممدوحه عاتبه منبها إياه من الغفلة ، وألا ينخدع بكلام المداهنين المخادعين المحيطين به ، وأن يعرف الناس على حقيقتهم فقال :

يا أعدلَ النّاسِ إلاّ فـي مُعـاملَتي ... فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَـمُ
أُعِـذُها نَظَـراتٍ مِنـكَ صـادِقَةً ... أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ
وَمَا انْتِفَـاعُ أخـي الـدّنْيَا بِنَـاظِرِهِ ... إذا استَوَتْ عِنْـدَهُ الأنْـوارُ وَالظُّلَـمُ

ويصرح بعد ذلك معلنا الرحيل عن قوم لم يقدروه حق قدره ، ومبينا أن شر المكان الذي لا يجد فيه المرء الصديق والرفيق ، ولا يجد فيه الراحة والتقدير وعندئذ يكون الرحيل أمرا واجبا محببا ، فيقول :

يَـامَنْ يعِـزّ عَلَيْنَـا أنْ نُفَـارِقَهُمْ ... وِجدانُنا كُلَّ شيءٍ بَعـدَكمْ عَـدَمُ
مَا كـانَ أخلَقَنَـا مِـنكُمْ بتَكرِمَـةٍ ... لَوْ أنّ أمْـرَكُمُ مِـن أمرِنَا أمَـمُ
إنْ كانَ سَرّكُمُ مـا قـالَ حاسِـدُنَا ... فَمَا لجُـرْحٍ إذا أرْضـاكُمُ ألَـمُ
أرى النّوَى يَقتَضيني كلَّ مَرْحَلَـةٍ ... لا تَستَقِلّ بها الوَخّـادَةُ الرُّسُـمُ
لَئِنْ تَرَكْنَ ضُـمَيرًا عَـنْ مَيامِنِـا ... لَيَحْـدُثَنّ لمَـنْ وَدّعْـتُهُمْ نَـدَمُ

إذا تَرَحّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَـد قَـدَرُوا   أنْ لا تُفارِقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُـمُ
شَـرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَدِيـقَ بِهِ   وَشَـرُّما يَكسِبُ الإنسانُ مايَصِمُ
وَشَرُّ ما قَنّصَـتْهُ رَاحَتـي قَـنَصٌ   شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ والـرَّخَمِ (٢)

ثم قال لمن حوله " لم يعد للمتنبي مقام في حلب " وقرر الرحيل إلى مصر، علّه يجد فيها الراحة والمكانة اللائقة ، وكان له فيها ما كان مع كافور الإخشيدي فكتب فيه قصيدة الهجاء المشهورة ، وارتحل بعدها إلى بلاد الشام مرة أخرى ، وظل فيها متنقلا حتى لقي حتفه .

وهذا نزار قباني شاعر العصر الحديث الذي ملأ الدنيا بشعره ، لم يقبع في مكان ، بل ظل متنقلاً ، يرتحل من بلد إلى بلد آخر، يقيم حيث توجد الحرية ويرحل عندما يختنق ويشعر بالأغلال تقيد فمه وتمسك عليه لسانه ، وتعوقه عن قول الحقيقة ، ويعلل رحيله وانتقاله بأنه لا يرتضي المذلة والمهانة ، **ويقول:**

لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة
لأنني أحارب الطاعون في أمتي المحاصرة
يحاربني كل الطغاة والجبابرة (٣)

ولذا نراه يقول عن الحرية : "أتصور، أنه لابد من أن نتفق على تعريف مبدئي لمعنى الحرية حتى لا تتداخل حدود الأشياء وتضطرب الرؤية، ويختلط اللون الأبيض باللون الأسود وأول ما أتصوره هو أن الحرية حركة فردية داخل دائرة الجماعة هذه الجماعة يمكن أن تكون أسرة أو قبيلة، أو جمعية ، أو مدرسة أو وطناً . ومعنى هذا أن الحرية هي خط هندسي ضمن دائرة، وليست أبدًا حركة في الفراغ أو المطلق..

وكما أن البحر محدود بالشواطئ والريح محدودة بالجبال، والأنهار محدودة بضفافها ، والطائرات محدودة بمدارج الصعود والهبوط، والعصافير محدودة بمساحة أجنحتها فإن الإنسان هو الآخر محدود بمسؤوليته واستعمال الحرية كاستعمال المستحضرات والعقاقير الطبية، لا يمكن أن يكون بغير مقاييس ومعايير وضوابط وإلا كانت الحرية قاتلة".(٤)

ويقول عن الكتابة : الكتابة هي فن التورط ولا كتابة حقيقية خارج "التورط". الكتابة ليست سجادة فارسية يمشي عليها الكاتب كما يقول جان كوكتو ولا مقعداً مغلفاً "لأوبوسون "، ولا مخدة من ريش العصافير تغوص رؤوسنا فيها ، ولا يختاً خاصاً نتشمس على ظهره....

إن الكاتب يجب أن يظل في أعماقه بدوياً يتعامل مع الشمس والملح والعطش .. يجب أن يبقى حافي القدمين حتى يتحسس حرارة الأرض ونتوءاتها ووجع حجارتها.. يجب أن يبقى عارياً كحصان متوحش، ورافضاً كل السروج التي تحاول الأنظمة وضعها على ظهره. ومتى فقد الكاتب بداوته ، وتوحشه وقدرته علي الصهيل، ومتى فتح فمه للجام الحديدي، ومنح ظهره للبراكين، تحول إلى "أوتوبوس حكومي" مضطر إلي الوقوف على جميع المحطات والخضوع لصفارة قاطع التذاكر." (٥)

والنماذج كثيرة في مراجع الأدب تؤكد لنا أن الحرية والانطلاق من لوازم الشاعر ، وهي الأرض التي يبني عليها وفي ظلالها أبعاد تجربته ، ويرسم حدودها .

الهوامش

١- الشعر الجاهلي ، شوقي ضيف .

٢- شرح ديوان المتنبي للبرقوقي.

٣- الأعمال السياسية لنزار قباني.

٤- الأعمال الكاملة ، الكتابة عمل إنقلابي ، ص٣١.

٥- نفسه ، أتوبوسات الشعر ، ص ١٥.

من الدرس البلاغي

في

الخطاب القرآني

من الدرس البلاغي في الخطاب القرآني

القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣] (١) ، هو القمة في البلاغة والغاية في الفصاحة ، نزل بلسان عربي على قوم صناعتهم البيان ومحكم الكلام فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولم يثبتوا أمام عظمة التنزيل ، **قال تعالى :**

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة:٢٣] (٢)

وبلغ القرآن في التحدي مداه فبين للعرب - أرباب الفصاحة – أن الإنس والجن لا يقدرون على الإتيان بمثله ، **يقول المولى عز وجل :**

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء:٨٨] (٣) .

وأسلوب القرآن العظيم – بما فيه من متانة سبك ، وجودة صياغة – نمط إلهي خاص ، لا هو بالشعر ولا هو بالنثر " وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن ، وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسرار دقائقه .. كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه ، جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ، لغته هي اللغة العربية التي كان ينطقها الناس " (٤) .

لقد فتح هذا الأسلوب القرآني الباب على مصراعيه أمام الباحثين وعلماء اللغة منذ قرون طويلة بدءا من الجرجاني في دلائل الإعجاز ، وسر الفصاحة لابن

سنان الخفاجي ، ومن جاء بعدهم ، حتى وقتنا الحاضر. نهلوا - جميعا - من منهل الذكر الحكيم العذب ، حتى امتلأت أوعيتهم ، وما نضب المعين العذب ، بل ظل سائغا للشاربين ، وكأنه يزداد ثراء وعذوبة كلما نهل منه الناهلون ، وشرب منه الشاربون ،فقد بحثوا في أسرار فصاحته ، فأدركوا القليل وبقي الكثير ، وسيظل هكذا في عظمته وتفرده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وما من موطن للخطاب القرآني إلا تجد فيه للبيان الرباني الملاءمة ومراعاة ما يستدعيه الموقف ، ففي سورة الضحى التي نزلت في أعقاب تأخر الوحي في النزول على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .. جاء الخطاب القرآني تسرية وتطييبا لخاطره عليه السلام ، فما المنهج الذي سلكته السورة ؟

إنها تبدأ بالقسم ، وقسم ممن ؟ من خالق الأرض والسماء ، يقسم بآيتين عظيمتين من آياته في خلقه ، يقسم بالضحى وما فيه من إشراق وضياء وسعي عليها تقوم عمارة الكون ، ويقسم بالليل وما فيه من دلائل على عظمة الله في خلقه فالليل سكن وراحة للإنسان ولكثير من المخلوقات للاستعانة على الكد والكدح وكسب الرزق واستمرار الحياة .

ثم انظر إلى الاختيار الإلهي للقسم بالضحى والليل بالذات ، نجد أن دورة الحياة وما فيها من أمور مادية أو معنوية لا تتم إلا في زمنهما: الليل أو النهار وكأن الآية الكريمة تبغي من خلال هذا القسم طمأنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أن ربه الخالق لم ينسه مطلقا ، وتؤكد الآية ذلك - أيضا - بمجيء جواب القسم منفيا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [سورة الضحى:٣]، كما جاء العطف : ما ودع ، وما قلى ليدل على الشمول ويبعد عن الذهن أية مظنة لأي نوع من أنواع الهجر والابتعاد ، وتثبت قربه صلى الله عليه وسلم من ربه .

ويستمر الخطاب القرآني في أسلوب التسرية ومنهجها الرائع بالعطف بجملة مؤكدة باللام ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الضُّحى:٤] يؤكد فيها رب العزة أن عاقبة ذلك خير، وأن آخر هذا الأمر فيه الفلاح وفيه السعادة ، أما وجود اللام والحرف سوف والفعل المضارع فبيان لزيادة عطاء الله له في قابل أيامه . ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [سورة الضُّحى:٥]

ونستطيع أن نرصد هذا النهج القرآني للتسرية من خلال الخطاطة التالية :

أداة القسم ↓	المقسم به ↓	جواب القسم
الواو	﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [سورة الضُّحى:١-٢]	﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضُّحى:٣]

والليل لما فيه من لما فيه من سكن وراحة جواب القسم منفي يؤكد منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند رب العزة .

جملة مؤكدة باللام	جملة معطوفة مؤكدة باللام
﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الضُّحى:٤]	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [سورة الضُّحى:٥]

وبعد أن أكدت الآية الكريمة منزلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه وأن تأخر الوحي لا يعني أن الله سبحانه وتعالى ودعه وقلاه ، تعود الآيات إلى

تذكير سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بنعم الله عليه ، ورعايته وحفظه ، وما أفاء عليه من خير ؛ تذكره بثلاثة أمور مهمة في حياته :

- فقد حفظه الله في يتمه وتولاه برعايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [سورة الضُّحى:٦].

- وهداه الله برسالة الإسلام ، وأبعده عن الضلال الذي ساد في قومه ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [سورة الضُّحى:٧]

- وأغناه الله وأعز جانبه ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [سورة الضُّحى:٨]

والآية الكريمة إذ تذكر بنعم الله الثلاثة على نبيه ، تدعوه وتدعو المسلمين جميعا **إلى ثلاثة أمور أخرى متعلقة بها :**

- تدعو إلى رعاية اليتيم والأخذ بيده والمسح على رأسه رقة وعطفا ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [سورة الضُّحى:٩]

- وتدعو إلى إكرام السائل وإجابة طلبه وعدم نهره ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الضُّحى:١٠]

- وتدعو إلى شكر نعمة النعمة وتذكر فضل الله بالحديث عنها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [سورة الضُّحى:١١]

ونستطيع أن نرصد هذا النهج التذكيري من خلال الخطاطة التالية :

الأمور التي ذكرت بها الآية الكريمة	ما يترتب على هذه الأمور
- يتم أعقبه إيواء	- رعاية اليتيم والعطف عليه .
- ضلال أعقبه هُدى	- تذكر نعمة الله وشكرها والتحدث بها .
- احتياج أعقبه غِنى	- إكرام السائل وعدم إهانته .

وواضح ما في هذا التذكير بنعم الله من طمأنة النبي الكريم إلى علو مكانته وأن الله يرعاه ، وأن عونه دائم ، وفضله سيستمر حتى ينعم بالرضا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۞ ﴾ [سورة الضُّحى:٥]

ويستمر منهج التسرية نفسه في سورة الشرح ، فتذكر الآيات سيد الخلق بنعمة كبيرة أنعمها الخالق جل وعلا عليه وهي شرح الصدر، وإزالة ما به من بغضاء وأدران ، وجاء التذكير معتمدًا على الاستفهام المنفي:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ ﴾ [سورة الشَّرح:١]

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ ﴾ [سورة الشَّرح:٢] وهو استفهام تقريري ، وعند ذكر الشرح استخدم الفعل المضارع (نشرح) لإفادة الاستمرار، وعند ذكر إزالة الوزر استخدمت الآية الفعل الماضي (وضعنا) ليدل على التحقق ، والخطاطة التالية تبين ذلك :

استفهام منفي ↓	دلالة ↓	جملة معطوفة	دلالة
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [سورة الشَّرح:١]	التقرير والإثبات	﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [سورة الشَّرح:٢]	إبراز كثرة نعم الله على نبيه

استخدام المضارع

استخدام الماضي يفيد التوكيد والإثبات يفيد الاستمرار وتتوج الآيات الكريمات هذا التذكير الطيب بنعم الله **بقوله تعالى:**

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [سورة الشَّرح:٤]

قال قتادة: " رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا وينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"(٥).

ويعد هذا التذكير يأتي دور التوكيد **في قوله تعالى** :

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [سورة الشَّرح:٥] ثم التكرار لزيادة التوكيد ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [سورة الشَّرح:٦]

وكأن الآية الكريمة تجزم للبشر جميعا أن العسر دائما يعقبه يسر وانفراج أزمة ووصول إلى بر الأمان ، وما على الإنسان إلا أن يقوم للعبادة نشيطا فارغ البال وأن يخلص لربه النية والرغبة .

وظواهر الدقة الأسلوبية في القرآن الكريم لا يحصيها العد ، منها قول الله تعالى :﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [سورة الرحمن:٥] (٦) الذي تتجلى فيه روعة الصياغة ، فالفعل (حسب) مصدره حسابا وحسبانا أي عدّه وأحصاه وقدّره (٧) والملاحظ هنا أن الحسبان تعني خصوصية الحساب ودقته ، فمنازل القمر والشمس مقدرة بحسابات متناهية في الدقة ،إذ عليها يترتب نظام الكون وسير الأفلاك والنجوم والحياة على سطح الأرض ، وأن أي خطأ ضئيل يؤدي إلى خلل وارتباك وكوارث لا تحمد عقباها ، ذلك أن مادة (فعلان) في المصدر لها معنى الخصوصية :

- غفر (غفران).

- شكر (شكران) .

- حسب (حسبان) .

فالفعل (قرأ) مصدره : قراءة (أية قراءة في أي كتاب) ، ولكن في قولك : (قرآن) ينصرف الذهن إلى التلاوة في كتاب الله المنزل المسمي القرآن الكريم .

وفي قول الله تعالى :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الكهف:٤٠] (٨) .

حسبانا : معناها (ضرر و مصيبة) ولكن في هذه الآية الكريمة نجد معنى خاصا هو " أي عسى الله أن يرسل عليها مصيبة بقدر هذه الأيكة دون زيادة أو نقصان " (٩).

واستمرارًا لدقة الصياغة الأسلوبية ، ففي نهايات الآيات داخل السور ما يبهر العقل ، ويأخذ بمجامع القلوب ، ففي سورة سورة الإسراء وردت صيغة (المفعول المطلق المؤكد للفعل) عشر مرات ، يلاحظ أنها جاءت في الأمور التي تقتضي التوكيد سواء أكانت أمورًا مادية أم معنوية ، لذا فهي تؤكد وقوع الشيء وتحققه غاية التحقق ، **واستمع إلى قوله :**

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ **[سورة الإسراء:١٢] (١٠) تجد أن المولى جل وعلا يؤكد لنا دون أدنى مجال للشك أنه فصل كل شيء ووضحه في كتابه العزيز.**

وفي قوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:١٦] (١١) **تؤكد الآية الكريمة حقيقة الإهلاك ووقوعه للقرية التي يعمها فسوق مترفيها.**

وللقرآن الكريم عظمته ودقته في تشكيل الأفعال والمصادر، ففي قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٣١] (١٢).

جاء المصدر (خِطئا) بالكسر، لأن (الخِطء) بالكسر تعني الذنب الكبير المتعمد (١٣)، ذلك أن من يقتل أولاده خشية الفقر يكون متعمدًا ، أما (الخطأ) و(خطئا) بفتح الخاء والطاء في الفعل والمصدر قد يكون الأمر متعمدا أو غير متعمد.

وتحمل نهايات الآيات القرآنية من الأسرار ما يثير العجب ويخلب الألباب ففي قول الله تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٤٤] (١٤)

انتهت الآية الكريمة بقوله : إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فما علاقة هذه النهاية بمضمون الآية ؟ تخيل أنك وأنت جالس في منزلك أو وأنت سائر في الطريق تسمع كل ما حولك يسبح: المِقعد يسبح ، والطاولة تسبح ، والحائط يسبح ، والأدوات تسبح ، فماذا يحدث لك ؟ ستصاب بالذهول ، وربما يختل العقل !! لذلك كان الله حليما بنا ومن حلمه أن جعلنا لا نفقه ولا نسمع تسبيح الأشياء من حولنا ، حلما ورحمة بنا من الفزع والاختلال ، سبحانه جل شأنه في علوه ، ونفعنا بمحكم كتابه .

الهوامش

(١) سورة فصلت آية ٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣.

(٣)سورة الإسراء آية ٨٨.

(٤) الأدب الجاهلي ، طه حسين ، ص ٧٢، الطبعة السادسة عشرة ، دار المعارف ١٩٨٩.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، د/ محمد سليمان الأشقر، ص ٦٥٣، مجلد ٣، ط ٨ دار الجيل ، بيروت ١٩٩٥.

(٦) سورة الرحمن آية ٥.

(٧) المعجم الوسيط ج١، ص١٧١.

(٨)سورة الكهف آية ٤٠.

(٩) خواطر التفسير للشيخ محمد متولي الشعراوي (حديث مرئي في التلفاز).

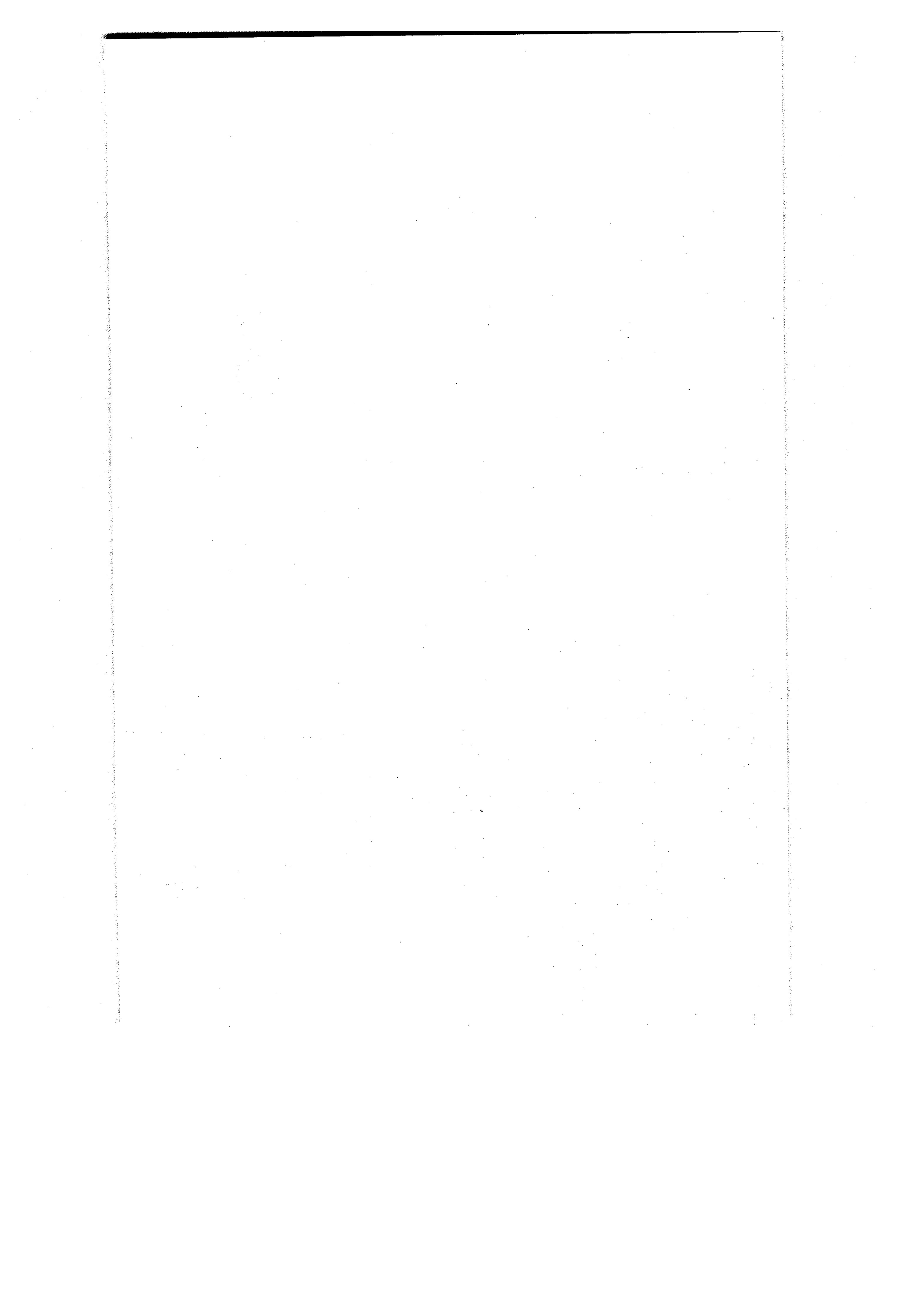
(١٠) سورة الإسراء آية ١٢.

(١١)سورة الإسراء آية ١٦.

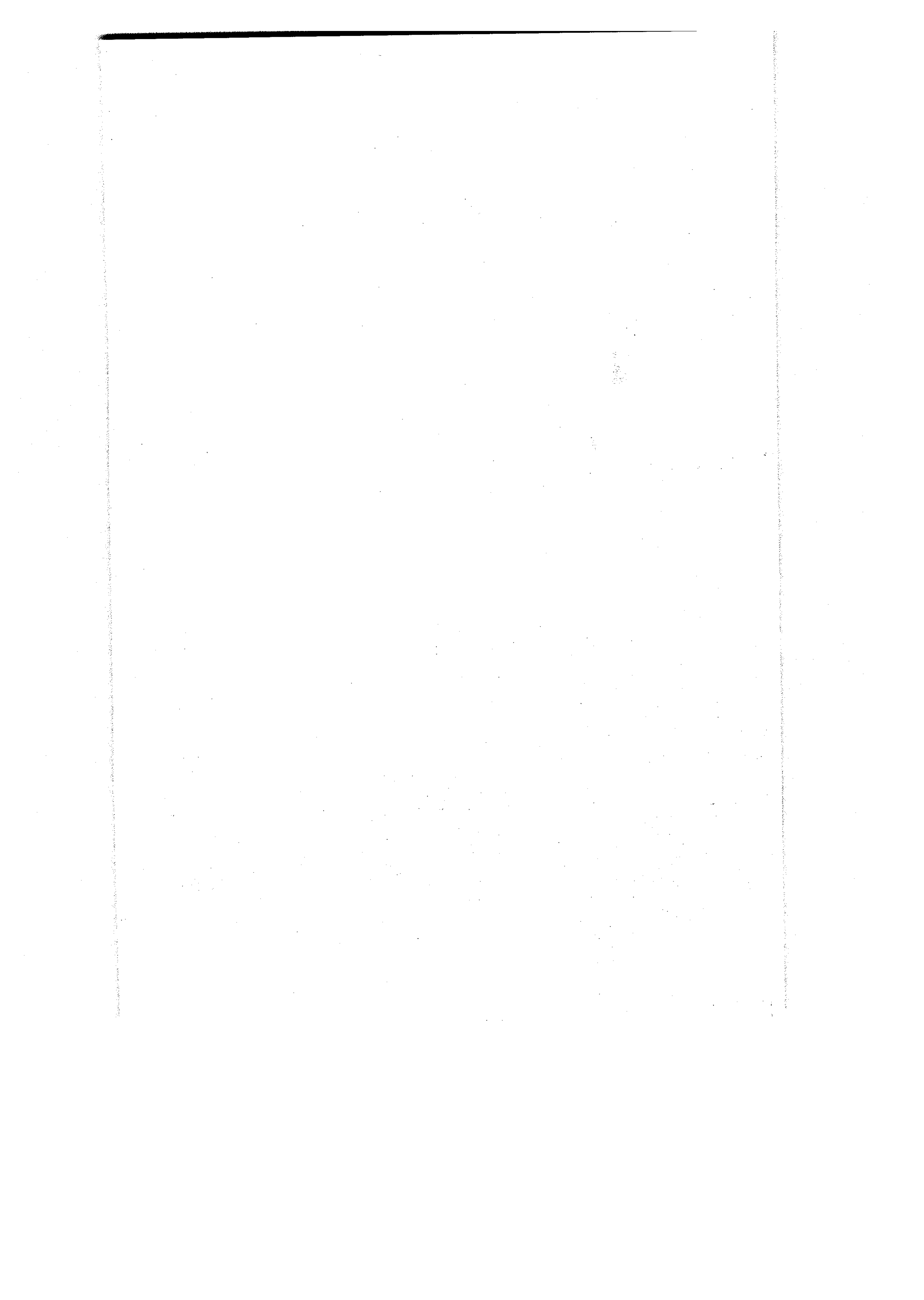
(١٢) سورة الإسراء آية ٣١.

(١٣) المعجم الوسيط ج١ ص ٢٤٢ .

(١٤) سورة الإسراء آية ٤٤.



دهشـــة الصـيـاغــــة
ورشـاقـة الـصـورة
في
شـعـر نـزار قـبـانـي



دهشة الصياغة ورشاقة الصورة

في شعر نزار قباني

نزار قباني ، قيثارة الشعر العربي التي وقعت أنغاما شجية ، شنفت آذاننا وأشاعت البهجة في أرواحنا سنوات طوالا ....

طوف بالمشرق العربي كله حاملاً على كتفيه هموم الإنسان العربي ومعاناته وواضعا قضايا العروبة نصب عينيه ، وفي حقائبه حيثما رحل ، وأينما ألقت به عصا التيار ، فجاء شعره كمبضع الجراح يمر على موضع الألم فيثير الأشجان ويبعث كوامن النفس بما يحدث من ضجيج يلفت الأنظار إلى قضايا العروبة ومعاناتها .

ومن قبيل المصادفة أن يكون مولده مع بداية الربيع ، عندما تتغير الطبيعة وتنقلب من حال إلى حال ، يقول عن نفسه : " يوم ولدت كانت الأرض هي الأخرى في حالة ولادة .. وكان الربيع يستعد لفتح حقائبه الخضراء .." (١) ، ويقول : " هل كانت مصادفة أن تكون ولادتي في هذا الفصل الذي تثور فيه الأرض على نفسها ... وترمي فيه كل أثوابها ؟ أم كان مكتوبا علي أن أكون كشهر آزار ، شهر التغيير والتحولات .." (٢).

جاء نزار فأحدث تغييرًا في خريطة الشعر العربي ، وخرج عن مألوف أغراضه التي لاكتها ألسن الشعراء من مدح ورثاء وغزل وهجاء ، وظلوا يدورون في فلكها ليبرحونها قرونا طويلة .

لم يقنع بما ألفه كثير من الشعراء ، فتمرد على قوالب الشعر الجامدة ، والأطر المعدة - مسبقا - للقصيدة ، فلم يضع نفسه في قيدها الذي كانت ترسف فيه ، بل

راح يعبر عن واقع أمته ، وحاضرها الذي تعيشه وظروفها التي تمر بها، ويعبر هو نفسه عن هذه الروح الوثابة التي في داخله ، وما في طبيعته من تمرد " كل الذي أعرفه أنني يوم ولدت كانت الطبيعة تنفذ انقلابها على الشتاء ..

وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها في انقلابها على روتين الأرض .." (٣).

نعم كان شعره خروجا عن المألوف ، وعزوفا عن البحيرة التي ركدت حتى أسن ماؤها بما تحمل من أسا. ب توارثها الشعراء وظلوا يرددونها حتى اعتادتها الأذن وملت سماعها .

كان الوطن العربي – في فترة توهج شاعرية نزار – يتجرع مرارة الألم بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ولا يكاد يسيغها ، وفي الوقت الذي كان كثير من الشعراء يدورون في فلك الاستكانة ، ومعايشة الأمر الواقع ، كان نزار يعيش تمردا على هذه القوالب والصور القديمة ، فبدا صريحا مع نفسه ، واضحا في قصيده ، يحيا بوجه واحد ، ظاهره كباطنه ، وأدرك بحسه الشعري أن الناس في لحظات الهزيمة يحتاجون إلى الوضوح ، ويستريحون للمكاشفة ، يقول : " العالم العربي .. أيها الأصدقاء بحاجة إلى جرعة شعر بعد أن جف فمه .. وتخشب قلبه .. " (٤) :كان هناك انفصال بين كثير من الشعراء وواقعهم ، يعيشون بوجهين ، وجه مع أنفسهم وذواتهم ، ووجه يلقون به الجمهور، لذا مجت الأسماع كثيرًا منهم ، ولم تعد على استعداد لمشاركتهم فيما يهذلون ، كما رأينا نزارا يحرض على التمرد والخروج من إطار القديم إلى عالم من التغيير والتجديد " إن الشعراء أيها الأصدقاء مدعوون لغرس السنابل الخضراء في كل زاوية من زوايا الوطن العربي " (٥)

وكانت قصيدة (مذكرات عاشق دمشقي) خطوة وثابة في سبيل تحقيق ما أراد ، فجاءت تصويرًا صادقا للواقع المؤلم الذي يعيشه العرب في لحظات الانكسار فنراه يصور حال المحاربين وقد عادوا منهزمين أمام العدو ، وفي طريق عودتهم يمرون بمقابر الأجداد الأبطال الفاتحين ، فيترجم مشاعرهم قائلا :

وقبر خالد في حمص نلامسه ... فيرجف القبر من زواره غضبا
يا ابن الوليد ألا سيف تؤجره ... فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا

ثم يلخص حقيقة المأساة ، وهي أننا نغضب حين نواجه بالحقيقة ، ومن ينطق بها ينبذ أو يطارد ، يقول :

ماذا سأقرأ من شعري ومن كتبي ... سنابك الخيل داست عندنا الأدبا؟
وحاصرتنا وآذتنا فلا قلم ... قال الحقيقة إلا اغتيل أو صلبا

لذلك يرى أن للشعر رسالة تتمثل في ذكر الحقيقة ، وحمل هموم الإنسان والتخفيف من معاناته ، يقول :

الشعر ليس حمامات نطيرها ... نحو السماء ولا نايا وريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره ... ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا

ومابرح يردد هذه الرسالة في كثير من قصائده .

أما منهج نزار وطريقته في بنية قصيده ، فله نمطه الذي يتفرد به عن شعراء عصره ، إذ طبعه بطابع خاص جعل له ميزة مختلفة عن غيره ، ولنا أن نتأمل هذا النموذج ، وهو من قصيدة (القصيدة الدمشقية) يقول فيها :

هذي دمشق .. وهذي الكاس والراح
إني أحب وبعض الحب ذباح

أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي

لسال منه عناقيد وتفاح

ويقول واهاً بموطنه:

مآذن الشام تبكي إذ تعانقني

وللمآذن كالأشجار أوراح

للياسمين حقول في منازلنا

وقطة البيت تغفو حيث ترتاح

طاحونة البن جزء من طفولتنا

فكيف أنسى وعطر الهيل فواح؟ (٦)

في هذا النموذج – وغيره من النماذج – في ثنايا شعر نزار نراه يقيم معمارية القصيدة وبناءها على أساس من دهشة الصياغة الشعرية ورشاقة الصورة ، فما المقصود بذلك ؟

دعنا نتبينه من خلال تحليل النموذج السابق على سبيل المثال ، وبداية نقرر أنه لا انفصال بين الصورة وصياغة الألفاظ ، لأن هذه الأخيرة جزء من مكونات الأولى .

ولو تتبعنا مفردات البيت ودورها في تكوين الصورة في قوله :

أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وأقداح

نجد الفعل (شرحتم) مختار بدقة ، إذ لا يصلح مكانه فعل آخر ، وكذلك الفعل (سال) موضوع بعناية في موضعه ، ثم ارتباط الجملة الشرطية (لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وأقداح) بالجملة الاسمية – قبلها – (أنا الدمشقي)

ليكون الناتج صورة رشيقة جعل فيها الشاعر جسمه شجرة تسيل منها العناقيد والأقداح ، ويمكن أن نتصور ذلك كله من خلال الشكل التالي:(الذي يكون منظومة البيت الشعري السابق) :

جملة اسمية + أسلوب الشرط

(أنا الدمشقي) +(لو شرحـــتم جسـدي لســـال منه عناقيد وأقداح)

⇩ ⇩

(فعل شرط مختار بعناية) (جواب شرط مختار بدقة)

من هنا كانت الصياغة المدهشة ، أو دهشة الصياغة وما يترتب عليها من رشاقة الصورة .

" وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني ؟

وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها ؟أو ليست هي سمات لها وأوضاعا وضعت لتدل عليها ؟ " (٧).

وكذا الحال في قول الشاعر :

مـــآذن الشـــام تبكـــي إذ تعـــانقني   وللمـــــآذن كالأشـــــجار أرواح

يبرز التجسيد الشعري ملموسا في هذا البيت ، فالمآذن تبكي ، وتعانق ، مع مابين الفعلين (تبكي) و (تعانق) من ارتباط داخل الصورة الدالة على اللهفة بعد غياب طويل .

ولم يكتف الشاعر بهذه الصورة ، بل أكدها بالتشبيه الذي جاء بعد واو العطف (وللمآذن كالأشجار أرواح) .

ويتضح منظومة هذه الصياغة من خلال الشكل التالي :

الجملة الاسمية + الجملة المعطوفة

(مآذن الشام تبكي إذ تعانقني) + (وللمآذن كالأشجار أرواح)

⇩ ⇩ ⇩

(فعل مختار بعناية)(فعل مختار بدقة) (تشبيه يؤكد الصورة التي قبله)

والذي لاشك فيه أن مقدرة الشاعر تتضح من خلال ما يفرع من معان جديدة يجند لها حلو اللفظ ومتين الأسلوب ، وعليه تكون المفاضلة بين شاعر وشاعر " فالألفاظ لا تراد لأنفسها ، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني " (٨).

وعلى هذا المنحى من النهج يقول نزار في قصيدة (تونس الخضراء):

يا تونس الخضراء جئتك عاشقا
وعلى جبيني وردة وكتاب
إني الدمشقي الذي احترف الهوى
فاخضوضرت لغنائه الأعشاب
أحرقت من خلفي جميع مراكبي
إن الهوى أن لا يكون إياب
أين اللواتي حبهن عبادة
وغيابهن وقربهن عذاب؟
اللابسات قصائدي ومدامعي
عاتبتهن فما أفاد عتاب
أحببتهن وهن ما أحببنني
وصدقتهن ووعدهن كذاب

أأحاسب امرأة على نسيانها
ومتى استقام مع النساء حساب ؟ (٩)

تأمل الصور التي وردت :

(على جبيني وردة وكتاب) كناية عن المعرفة والمودة .

(إن الهوى أن لا يكون إياب) كناية عن التفاني في العشق .

(اللابسات قصائدي) استعارة مكنية تجسد المعنى وتبرز القصيد في ثوب قشيب .

هذه الصور المتتابعة تعطي حشدًا كبيرًا من المعاني يصبح القارئ إزاءها في حالة من التأمل والإعجاب .

ثم تأمل التضاد في قوله : وغيابهن وقربهن عذاب : فالغياب عذاب ، هذا معلوم ، لكن كيف يكون القرب عذابا ؟ ، إن خبر المبتدأ(عذاب) هو الذي أحدث هذا المعنى الرشيق .

أما الاستفهام التقريري في قوله : ومتى استقام مع النساء حساب ؟ فهو استفهام مناسب في موضعه ، إذ يكشف عن داخل المرأة وما تحمل من طباع ، وكذلك التعجب في قوله (ما أسخف العشاق لو هم تابوا) أكسب المعنى رشاقة وجمالا ، مع ملاحظة أن كلمة (أسخف) غير شاعرية.

من هذا التأليف العجيب الذي يضم اختيارًا غير مسبوق للألفاظ في أساليب **خبرية وإنشائية، وصور جديدة على الأسماع كان باعث الدهشة والإعجاب ، والذي قال عنه الجرجاني " وإنها لصنعة تستدعي جودة القريحة والحذق في أن يجمع** الشاعر أعناق المتناظرات المتباينات في رابطة ويعقد بين الأجنبيات معا عقد

نسب وشبكة ، وما شرفت صنعة ، ولا ذكر بالتفضيل عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما " (١٠).

وفي قصيدة : رثاء طه حسين تتجلى رشاقة الصور في قوله :

ضـــــوء عينيــــك أم همـــــا نجـــــمتان ؟

كلهـــــم لا يــــرى وأنـــــت ترانـــــي

لســـت أدري مـــن أيـــن أبـــدأ بـــوحي ؟

شـــجر الـــدمع شـــاخ فـــي أجفـــاني

مـــا علينـــا إذا جلســـنا بـــركن

وفـــتحـــــــنا حقائـــــب الأحـــزان

وقـــــرأنا أبـــا العـــــلاء قليـــــلا

وقـــــرأنا رســـــالة الـــغفـــــران

ارم نظـــارتيـــــك مــــاأنت أعـــــمى

إنمـــا نـحــن جوقـــة الـــعـــمــــيان

أيهـــــا الأزهـــــري يـــا ســـــارق النـــار

ويـــــا كاســـــرا حـــــدود الثـــــواني

أنـــت أرضـــــعتنا حـــــليب التحـــــدي

فـطــحنـــا الــنجـــوم بالأســـــنان (١١).

تشكيل جديد غير معهود للصور :

فالدمع كالشجر يورق ويثمر ، والأحزان كثيرة كالحقائب وما تحمل والتحدي كالحليب يغذي وينمي ،ثم تأمل رشاقة الصياغة في قوله :(طحنا

النجوم بالأسنان) إذ يبرز التصوير أثر هذا العالم الجليل الذي امتد إلى ما أعقبه من أجيال المتعلمين ، وما أحدثه من ثورة في العلم والفكر.

إن هذا التشكيل اللغوي وما ترتب عليه من معنى أكسب التجربة حياة وقوة لأن "وظيفة اللغة هي التعبير الدقيق عن التجربة ، وأن الشاعر الذي يستخدم اللغة أداة لفنه يجب عليه أن يكون مسيطرا على الألفاظ ، فاللغة تخلع شكلا غير متوقع على التجربة حينما تتبلور في صورة جديدة "(١٢).

ولا شك أن جمال التصوير ينبع من صدق الإحساس ومعايشة التجربة وهذا ما نلمحه عند نزار في ثنايا قصيده ، مما جعل له نمطا تفرد به عن شعراء عصره ، ومعلوم "أن الصورة – داخل التشكيل اللغوي – لا تنفصل في دلالتها عن دلالات السياق العام التي تتآزر داخل البناء الفني للقصيدة حتى كأن الصورة مع سواها لمعات خاطفة في رحلة الشاعر لتبين عن معالم أخرى في الطريق (١٣).

لذلك عاش شعر نزار بيننا ، نستمتع به ونتفيأ ظلاله كما استمتعنا بغيره من إبداع الشعراء عبر مسيرة شعرنا العربي ولينضم إلى غيره من شعراء العربية الفحول أمثال المتنبي والبحتري وشوقي وغيرهم ممن غرسوا تجاربهم الثرية في حديقة الشعر العربي الوارفة الظلال .

الهوامش

(١) الأعمال النثرية الكاملة :دار منشورات نزار قباني ،بيروت ١٩٩٩م ، المجلد الأول ص ١.

(٢) نفسه ص ٣ .

(٣) نفسه ص ٣.

(٤) نفسه ص ٢٨٦.

(٥) نفسه ص ٢٨٦ .

(٦) الأعمال الشعرية الكاملة : دار منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٩٩م ص ٦٤ .

(٧) دلائل الإعجاز ، قراءة وتعليق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٠.

(٨) أسرار البلاغة ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ط١، ١٩٧٢،ص٨١ .

(٩) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١١٨ .

(١٠) أسرار البلاغة ، ص ١٢٢.

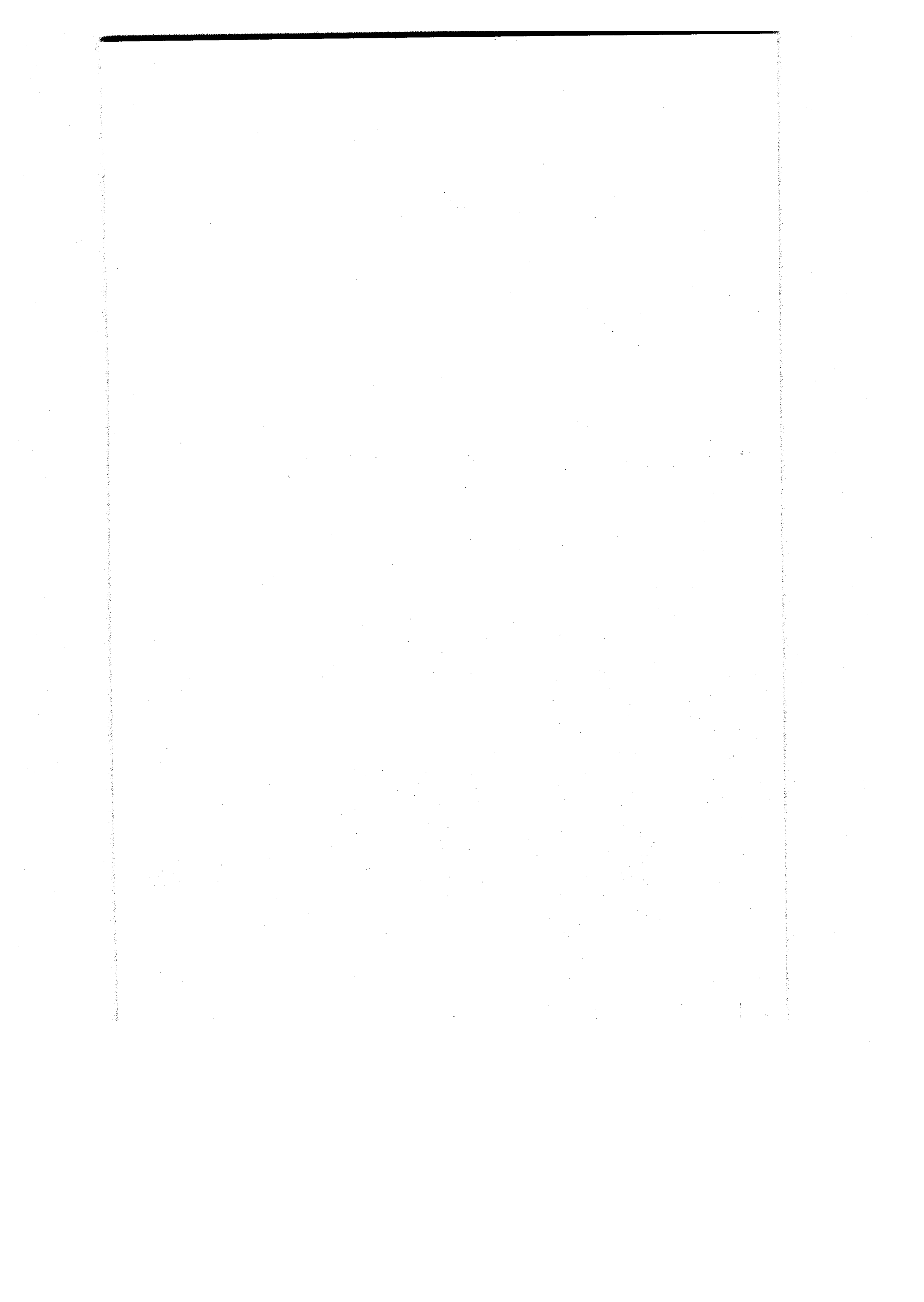
(١١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٤٠ .

(١٢) الإحساس بالجمال . جورج سانتيا ، د / مصطفى بدوي ص ١٩٠ .

(١٣)تذوق النص الأدبي ، د / رجاء عيد ، دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة قطر ط١ ص ٥٦ .

أمور يحار

فيها العقل



أمور يحار فيها العقل

● **النبي محمد صلى الله عليه وسلم :**

بعث النبي محمدا صلى الله عليه وسلم أميا ، ومع ذلك كان أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء، ففي أقواله صلى الله عليه وسلم نجد ملامح البلاغة ماثلة لا تخطئها العين ، والشواهد جمة :

ففي قوله الإيجاز مثل :

- لا تسرف في الماء ولو كنت على نهر.
- المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره . وحسبك في شرح (لا يظلمه) أو (لا يسلمه) أو (لا يخذله) كلمات لا تكفي لشرحها صفحات وصفحات .

ومن إيجازه صلى الله عليه وسلم في القول :

- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .
- تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه
- ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء .
- من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله في نهابر.
- إن من البيان لسحرا .

في كل حديث من هذه الأحاديث عبارات قليلة ، ولكن في طياتها المعاني الكثيرة التي لا يحصيها العد ، فهل يعقل أن يصدر مثل هذا الإيجاز من أمي ؟؟؟

وفي قوله صلى الله عليه وسلم جمال التصوير ، وروعة التشبيه مثل :

- أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات كل يوم ، أيبقى من درنه شيء ؟؟؟ قلنا بلى يا رسول ، قال : كذلك الصلوات الخمس يذهب الله بها الخطايا .

ما أروع الصورة ، وما أجمل التشبيه الماثل ، إذ يصور الصلوات في إذهابها خطايا الإنسان بالنهر الذي يغتسل فيه المرء فتزول أدرانه ن وينظف بنيانه .

وانظر إليه صلى الله عليه و ‌ لم في تصوير رائع يقول :

رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ... "هذه أركان الدين الثلاثة ، يصورها بالبناء المتين القائم : عموده الصلاة ، وأعلاه الإسلام وذروته الجهاد .

ويقول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى :

" الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار"

تشبيه حسي واضح جلي ، يجسم قيمة الصدقة ، ويبرز أثرها في إزالة الخطايا .

ثم انظر إليه كيف يصور الغضب ، يقول صلى الله عليه وسلم :

" إياكم والغضب فإنه جمرة تتوقد في فؤاد ابن آدم ، ألم تر إلى أحدكم إذا غضب كيف تحمر عيناه ، تنتفخ أوداجه ، فإذا أحس أحدكم بشيء من ذلك فليضطجع ، أو ليلصق بالأرض " ولأن الغضب ريح تهب فتطفئ سراج العقل فقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن الغضب من الشيطان ، والشيطان خلق من النار وإنما يطفئ النار الماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ ".

أرأيت كيف يصاغ التشبيه ، وكيف يجسم المعنوي ويبرزه في صورة محسوسة ؟ ؟

وفي تصوير يخلب اللب ، ويريح القلب ، ويحلق بثنايا الروح ، يصور مابين المسلمين من توادٍ وتراحم في قوله :

" مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى "

أية أمية تجعل من صاحبها عبقريا ينطق بمثل هذه الدرر الثمينة التي لا تعدلها كنوز الأرض وزنا وقيمة ؟؟

حاشاي يا رسول الله أن أقول عنك أميا ، وقد تعلمنا منك الفصاحة وشربنا من حديثك العذب كيف تكون الإبانة ؟

- وعجيب قولهم (أمي) وفي أمره ما يفوق عقول النابهين ، ويبز أفهام النابغين : لقد كان جبريل ينزل عليه بالآيات من عند شديد القوى ، يقرا عليه ما قدر له من آيات مرة واحدة ، فتنطبع في ذهنه الشريف صلى الله عليه وسلم، ويعود فيقرأ ما نزل عليه على مسامع كتاب الوحي من الصحابة ، ثم يرددها في الصلوات الجهرية (المغرب والعشاء والفجر) دون أن ينسى منها حرفا واحدا ، أو يخطئ في كلمة ....

وأتحدى ....جيء لي بعالم من أعظم العلماء الموجودين الذين يتمتعون بذاكرة خارقة للعادة في أي مكان في العالم ، وسأعطيه نصا مكتوبا من عشرة أسطر وسأطلب منه قراءتها عشر مرات ، ثم اطلب منه أن يعيد ما قرأ غيبا .. أتحدى أن يفعل ، أتحدى أن يفعل !!!

أيكون النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا الحفظ الخارق ، والذاكرة الواعية أميا ؟ حاشاه .. حاشاه .

إنه أمي ... أي جاء للأمة بأسرها ، وللعالم كله .

* الصلاة :

وعجيب أمر الصلاة ، وأمر من يؤديها ، ويحافظ عليها ، ،إنك تجد المواظب عليها ومتقنها هادئ النفس ، نافذ البصيرة ، متزن التصرفات ، حريص على النظام لا يحيد عنه ، يتوخى الطاعة (طاعة أولي الأمر) ، بار بأقربائه وذويه متراحم مع مجتمعه وبيئته .

ونتساءل : كيف تكسب الصلاة الإنسان المسلم كل هذه الصفات ؟؟

وأقول موضحا من خلال هذا التشبيه :

لو أن لديك سيارة تواظب على عرضها على (الميكانيكي) أو مهندس السيارات مرة كل أسبوع ، كيف يكون حال هذه السيارة ؟

واضح أنها ستكون في أحسن حال ، جيدة الأداء قوية لا تتوقف ، تتحمل الصعوبات والمشقات .

وأقول لك: فما بالنا نحن عندما نصلي ؟ إنك عندما تصلي الخمس تعرض نفسك على خالقك خمس مرات ، لا تدري ماذا يصلح بداخلك ؟ في كل عرض على الله في المرات الخمس يصلح فيك شيئا دون أن تدري ، لأنه خالقك وأدرى بجسمك ونفسك ، وما تحتاج من إصلاح .

هذا الكلام ليس من اختراعي ، وما أوتيته من عندي ، إنما هو من كتاب الله الأعز الأجل الذي يقول :

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥]

*** الرحمن الرحيم :**

اسمان وصفتان من صفات وأسماء الله الحسنى ، يؤكدهما ما في الحديث القدسي من معنى أن الله عزوجل أرحم على عباده من الأم على وليدها ، وهذا أمر نؤمن به ونثق فيه ، أما من ينكر أو يزايله الشك **فنقول له :**

يا أخي : انظر إلى حال الأب والأم ، وما في قلبهما من حنان وعطف على أولادهما .. يتعبان ليرتاح الأبناء ، ويشقيان ليسعد الأبناء ، ويتعريان ليكتسي الأبناء .. كل هذا لمجرد أنه سبب في خلق الأبناء ، فما بالك في الخالق الأعلى الذي خلق الأزواج كلها؟؟؟

- يغضب الابن ويقسو ، ولكن الأب والأم يحتملان غضبه ، ويغفران له خطأه ، بل يسعدان عندما يأتي لمصالحتهما .
- أما خالق الأرض والسماء ، فإنه يفرح بعودة المسيء المذنب إليه ، وتسر السموات كلها بتوبة المذنب :

فقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قل: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَلَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))(رواه مسلم).

رقة البحر وعذوبة الصحراء في شعر غازي القصيبي

القصيبي ، صوت الجزيرة الدافئ الذي ملأ الدنيا شعرا ، وعبق ساحتها شدوا وغناء وسحرا بكلماته العذبة التي يفوح منها عطر الصحراء ، وأساليبه المحملة برائحة البحر ، وقصيده الذي يتألق نظما كسموق النخل ، والقصيبي الشاعر قد جمع في شعره بين الرو انسية الحالمة ، والكلاسيكية بما تحمل من أصالة وجذالة ، وقصيده خير شاهد على ما نقول :

ففي قصيدة أغنية للخليج يبرز تعلقه بالخليج ، وأنه لا يحتمل البعد عنه يسافر ويغترب ، لكنه سرعان ما يعود في لهفة وشوق يعانق الرمل ، ويوشوش الأصداف ، وينبش عن ذكرياته القديمة ، يقول :

أتيــــت أرقـــــب ميعـــــادي مــــع القمـــــرِ
يـــــا ســــاحر المـــوج والشـــطآن والجــــزرِ
هــــــديتي رعشـــــتا شـــــوق ..وقافيـــــة
حملتهــــا كـــل مــــا عانيــــت فــــي ســــفري
ت أمـــــرح فــــوق الرمــــل .. أنبشــــه
عن ذكرياتي القـــدامي عـــن هـــوى صـــغري
عــــن النجـــــوم أنبناهـــــا بأكؤســــــنا
عـــن الليـــالي مشـــيناها علـــى الـــوتر
أمــــر بالشــــاطيء الغــــافي فأوقظـــــه
بقبلــــــة .. وأناديــــــه إلــــــى الســــــمر

أقـــول : " شـــاعرك الولهـــان .. تـــذكره ?!

أتـــــاك يحلـــــم بالأصـــــداف والـــــدرر

مـــن بعـــد أن ذرع الـــدنيا فمـــا فتحـــت

لـــــه الشـــــواطيء إلا مرفـــــأ الضـــجر

ولحـــت يـــا أزرق العينـــين ..فانطلقـــت

أشـــواقه بجنـــون البيـــد فـــي المطـــر)

ثم يعود ليتحدث عن الغوص ، وما يحمل من ذكريات طيبة ، وأغنيات عذبة ، وما فيه من تعب وعناء في رحلات شاقة ، وتعب متواصل ، يقول :

خلـــيج ! مـــا وشـــوش المحـــار فـــي أذنـــي

إلا ســـــمعتك صـــــوتا دافـــــيء الخـــدر

ولا تـــــرنّم مـــــلاح بأغنيـــــة

إلا وضـــجّت أغـــاني الغـــوص فـــي الســـحر

ولا رأيـــت شـــراعا ضـــمه أفـــق

إلا ومـــرت هـــواري الصـــيد فـــي فكـــري

ولا احترقـــتُ بنـــار الشـــمس ثانيـــة

إلا ابتـــردت بمـــا خلّفـــت فـــي ذكـــري

وعندما يعود يلقي عصا التسيار ، ويرتمي على الشاطئ يبثه أشواقه ، وما صادفه في ترحاله عنه من متاعب ، وأن كل المرافئ بعد الخليج موحشة ، وكل البحار بعد الخليج لا تروق له ، ولا يلذ له فيها الإبحار والانطلاق ، يقول :

خلـــيج ! مـــرت علينـــا بـــالنوى ســـنة

فهات حـــدّث وسَـــلْ مـــا شـــئت مـــن خبـــري

ركبتُ سبعين بحرا .. جُبت أودية

طارت بيَ الريح من أمن إلى خطر

ضحكت والحب يرعاني ببسمته

ونُحتُ والحب ليل صاخب الكدر

عشت السعادة حُلما لا يفارقني

وعشت أعنف حزن في دم البشر

حتى أتيتك .. فامسح بالنسيم على

آهات جرحي .. ورش ـ وج في شرري

وصُبَّ في مسمعي الظمآن ملحمة

من عالم الظل والألوان والصور

عن الشواطيء تغوي الشمس وجنتها

فترتمي في أصيل أحمر الخفَر

عن اللآلىء في أصدافها رقدت

وخلَّفت أعين الغواص للسهر

ثم لا ينفك يتحدث عن عروبة الخليج وما يتمناه له من سلام ، وأمن وأمان ويدعوله بالحفظ والحماية ، وأن يحفظه الله من كل معتد مغير ، يقول :

خليج ! يا موجة بيضاء .. تنقلها

أصابع الشوق من قلبي إلى بصري

أعيذ وجهك أن تغزو ملامحه

رغم العواصف إلا بسمة الظفر

عهدته عربيا .. ما لوى فمه

بلكنـــة هـــاجرت مـــن شـــاطيء التتـــر

عهدتـــه عربيـــا .. مـــلء جبهتـــه

كبْـــرٌ مـــن البيـــد ... لـــم يركـــع علـــى قـــدر

عهدتـــه عربيـــا .. مـــا غفـــا وصـــحا

إلا علـــى لغـــة الإعجـــاز والســـور

وإمعانا في حب الخليج والتعلق به ، يظهر العلاقة بين دول الخليج وبلدانه وما بينها من أواصر المودة ، وصلة الرحم والقربى بين شعوبه ، ويدلل على ذلك بالحديث عن الجسر المقام بين البحرين والسعودية ، وأنه ليسْ جسرًا من الحجارة بل جسرًا من المودة والإخاء يربط بين الإفراد ، ويقرب بينهم ، ويجمعهم على الخير والوفاء ، **يقول** :

ضـــرب مـــن العشـــق لا درب مـــن الحجـــر

هـــذا الـــذي طـــار بالواحـــات للجـــزر

ســـاق الخيـــام إلـــى الشـــطآن فانزلقـــت

عبـــر الميـــاه شـــراع أبـــيض الخفـــر

مـــاذا أرى؟؟زورق فـــي المـــاء منـــدفع

أم انـــه جمـــل مـــا كـــلّ مـــن ســـفر

وهـــذه أغنيـــات الغـــوص فـــي أذنـــي

أم الحـــداة شـــدوا بالشـــعر فـــي الســـحر

واســـتيقظت نخلـــة وســـنى توشوشـــني

مـــن طـــوق النخـــل بالأصـــداف والـــدرر؟؟

وفي غمرة الشعور الأخوي الآسر ينسى القصيبي نفسه ، فلا يستطيع تحديد موضعه ، لأن كل بلد خليجي بلده ، **يقول** :

نســـيت أيـــن أنـــا!! إن الريـــاض هنـــا

مـــع المنامـــــة مشـــغولان بالســـمر

أم هـــــذه جـــــدة جـــاءت بأنجمهـــا

أم المحـــــرق زارتنـــا مـــع القمـــر

وهـــذه ضـــحكات اسـ ـــر فـــي الخبـــر

أم الرفـــاع رنـــت فـــي موســـم المطـــر

أم أنهـــا مســـقط الســـمراء زائرتـــي

أم أنهـــا الدوحـــة الخضـــراء فـــي قطـــر

أم الكويـــت التـــي حبـــت فهمـــت بهـــا

أم أنها العـين فكـم فـي العـين مـن حـور

بـــدو وبحـــارة مـــا الفـــرق بينهمـــا؟

والبـــر والبحـــر ينســـابان مـــن مضـــر

خلـــــيج إن حبـــــال الله تربطنـــــا

فهـــل يقربنـــا خـــيط مـــن الحجـــر؟

والقصيبي بارع حينما يصف ، تامل دقة ما يتناول عندما يتحدث عن بيروت وكيف فاقت البلاد حسنا ، ورقة هواء ، وطيب أنفاس تفوح من الأزاهير والأشجار وما يجول في الجو من غناء الأطيار ، يقول واصفا بيروت :

بيــــروت! ويحـــك! أيـــن الســـحر والطيـــب؟
وأيـــن حســـن علـــى الشـــطآن مســـكوب؟
وأيـــن رحلتنـــا و الوجـــد مركبنـــا؟
والبحـــر أفـــق مـــن الأحـــلام منصـــوب؟
وأنـــت مترعـــة النهـــدين مترفـــة
دنيـــاك وعـــد بشـــوق الوصـــل مخصـــوب
فـــي مقلتيـــك مـــن الأهـــواء أعنفهـــا
وفـــي شـــفاهك إيمـــاء و ترحيـــب
وفـــي يمينـــي ورود جئـــت أزرعهـــا
علـــى ضـــفائر فيهـــا الليـــل مصـــلوب

* * *

بيـــروت! مـــاذا يقـــول النـــاس؟ هـــل نبحـــت
بـــيض الأمـــاني.. و غـــال الطفلـــة الـــذيب؟
وهـــل تـــوارى ملـــيح كـــان يأســـرني
وهـــل قضـــى قبـــل يـــوم الوعـــد محبـــوب؟
وأيـــن مـــا كـــان-يـــا بيـــروت-إذ رقصـــت
لـــي الليـــالي.. و طـــارت بـــي الأعاجيـــب؟
وأيـــن شـــعر جميـــل لســـت أذكـــره

علـــى الصـــنوبر و التفـــاح مكتـــوب؟

و أيـــن أول حـــب ضـــمني.. و مضـــى

و وقـــده فـــي حنايـــا القلـــب مشـــبوب؟

* * *

وفي غمرة الوصف لا ينسى ما ألم ببيروت ، وما أصابه نتيجة الخلافات والانقسامات يقول وهو العربي الذي يحب بيروت :

بيـــروت! لا تصـــفي لـــي الجـــرح.. أعرفـــه

فإنـــه فـــي دمـــائي الحمـــر معصـــوب

أنـــا الـــذي أســـرته الـــروم.. مـــا لحقـــت

بـــه العـــراب.. و خانتـــه الأعاريـــب

حملـــت فـــي كبـــدي الآلام فـــانفطرت

وطوحـــت بـــي إلـــى اليـــأس التجاريـــب

يـــا للزعامـــات تلهـــو بـــي.. و أعشـــقها

وربمـــا عشـــق الأرزاء منكـــوب

كـــم أرضـــعوني شـــراب الـــوهم. كـــم ســـخروا

منـــي.. و كـــم غصـــبت روحـــي الأكاذيـــب

لا تنتهـــي غفلـــة عنـــدي معتقـــة

و لا انتهـــت عنـــدهم تلـــك الألاعيـــب

ثم يبين واقع العرب المؤلم ، وما دهاهم من انقسام وتشرذم يقول :

بيـــروت! نحـــن الألـــى ســـاقوك عاريـــة

للمـــوت يصـــرخ فـــي عينيـــك تعـــذيب

كـــم ناشـــدتنا شـــفاه فيـــك ضـــارعة

و كـــم دعانـــا عفـــاف منـــك مســـلوب

فمـــا اســـتفاق ضـــمير فـــي جوانحنـــا

مخـــدر فـــي ضـــفاف الزيـــف محجـــوب

حتـــى إذا ضـــحك الجـــلاد.. مـــا دمعـــت

عـــين و لا غـــص بالآهـــات مكـــروب

ســـقطت و انـــتفض التـــاريخ يلعننـــا

و أطرقـــت فـــي أســـى المجـــد المحاريـــب

* * *

نهـــيم خلـــف ســـلام عـــز مطلبـــه

و مـــل مـــن وعـــده الممطـــال عرقـــوب

عشـــنا مـــع الـــذل حتـــى عـــاف صـــحبتنا

نمنـــا علـــى الصـــبر حتـــى ضـــج أيـــوب

أكلمـــا قـــام فـــيهم مـــن يـــذبحنا

قلنـــا: الســـلام علـــى العـــلات مطلـــوب

و كلمـــا استأســـد العـــدوان باركـــه

منـــا جبـــان إلـــى الإذعـــان مجـــذوب

لا ترجـــع الأرض إلا حـــين يغســـلها

بـــالجرح و النـــار يـــوم الفـــتح شـــؤبوب

***

وهو لا ينسى أسرته الصغير وذويه ، يأوي إليهم يلوذ بحماهم من هجير الحياة ولفح الواقع المرير ، وتكفيه بسمة حانية من أي فرد من أسرته لتمسح عنه غبار الحياة وعناء العمل ، **يقول في قصيدة** (**بسمة من سهيل**) :

أرجـــــــع فـــــــي الليـــــــل

أحمـــل فـــي صـــدري جـــراح النهـــار

يثقلنـــــــي ظلـــــــي

وتكتســـي روحـــي ثيـــاب الغبـــار

حاربـــــــت بالشـــــــعر

فـــي عـــالم لا يفهـــم الشـــعرا

غنيـــــــت للطهـــــــر

فـــي عـــالم يغتصـــب الطهـــرا

عـــدت يـــا ســـلمى

ممزقـــا بعـــد العنـــاء الشـــديد

لـــن أدرك الحلمـــا

ففـــيم أمضـــي فـــي صـــراعي العنيـــد؟

هتفـــت بـــي: أهـــلا!

وضـــوأت لـــي بســـمة كـــالقمر

وقلـــت لـــي كـــلا

لـــن ينحنـــي الشـــعر لزيـــف البشـــر

وقلـــت لـــي حـــاذر

أن تتـــرك الســـاح لمكـــر الكبـــار

فـــــــنحن يــــــا شـــــــاعر

نفعـــــــل مــــــا نفعلــــــه للصـــــغار

أعـــــــود فـــــــي الفجــــــــر

أشــــق بالشـــــعر صـــــدور الخيـــــل

و ذاك.. لــــــــــو يـــــــــــدري!

لبســـــمة ســـــاحرة مـــــن ســـــهيل

وعنـدما تقـدم بـه العمـر ، وسـار بـه الـزمن في شـعابه وتنقلـت بـه الحيـاة في دروبها ، يتحدث عما قابله من عقبات وصعوبات ، وكيف تصدى لها بما يملك من ثبات وما فيه من صلابة ورجاحة عقل ، **يقول في قصيدة (حديقة الغروب)** :

خمـــسٌ وســـتُونَ.. فـــي أجفـــان إعصـــارِ

أمـــا ســـئمتَ ارتحـــالاً أيّهـــا الســـاري؟

أمـــا مللـــت مـــن الأســـفار.. مـــا هـــدأت

إلا وألقتـــــك فـــــي وعثـــــاء أســــفار؟

هـــذي حديقـــة عمـــري فـــي الغـــروب.. كمـــا

رأيـــتِ... مرعـــى خريـــفٍ جـــائع ضـــارِ

الطيـــرُ هَـــاجَرَ.. والأغصـــانُ شـــاحبةٌ

والـــوردُ أطـــرقَ يبكـــي عهـــد آذارِ

تتبعينـــي! دعينـــي!.. واقرئـــي كتبـــي

فبـــين أوراقِهـــا لا تلقـــاكِ أخبـــاري

وإنْ مضـــيتُ فقـــولي: لـــم يكـــن بطـــلاً..

وكـــان يمـــزجُ أطـــوارا بـــأطوار

تركــــتُ بـــين رمـــال البيـــد أغنيتـــي

وعنـــد شـــاطئكِ المســـحورِ.. أســـماري

إن ســـاءلوكِ فقـــولي: لـــم أبـــعْ قلمـــي

ولـــم أدنّـــس بســـوق الزيـــف أفكـــاري

وإن مضـــيتُ.. فقـــولي لـــم يكـــن بَطَـــلاً:

وكـــان طفلـــي.. ومحبـــوبي.. وقيثـــاري

يـــا عـــالم الغيـــبِ! ذنبـــي أنـــتَ تعرفُـــه

وأنـــت تعلـــمُ إعلانـــي وإســـراري..

وأنـــتَ أدرى بإيمـــانٍ مننـــتَ بـــه

علـــي.. مـــا خدشـــته كـــل أوزاري.

حســـن الظـــن يشـــفع لـــي أحببـــتُ لقيـــاكَ.

أيرتُجَـــى العفـــو إلاّ عنـــد غفّـــارِ؟

ويظل قصيد القصيبي بعد رحيله ، يعانق روابينا ، ويهدهد أرواحنا بحلو المعاني ، ورقيق اللفظ ، وجميل الأسلوب .

رسوخ الجبال وشموخ القلاع في شعر

عبد الله البردوني

البردوني شاعر اليمن السعيد ، بصوته الشعري الذي يتردد في جنبات جبال اليمن يطاولها شموخا ، ويزاحمها سموًا وارتفاعًا ، ترى في قصيدة حديث الريح عندما تلتف خصور الجبال ، وترى في شعره هدير العربي حين يغضب ويثور لكرامته وتسمع في قصيده حديث العاشق الرقيق الذي يفيض عذوبة وسلاسة وانظر إليه يتغني بجمال اليمن السعيد ، وكيف يصفها ومدى تمكنها من قلبه

يقول في قصيدته الرائعة (من أرض بلقيس):

من أرض بلقيس هذا اللحن والوتر
من جوها هذه الأنسام والسحر
من خاطر «اليمن» الخضرا ومهجتها
هذي الأغاريد والأصداء والفكر
هذا القصيد أغانيها ودمعتها
وسحرها وصباها الأغيد النضر
يكاد من طول ما غنى خمائلها
يفوح من كل حرف جوها العطر
يكاد من كثر ما ضمته أغصنها
يرف من وجنتيها الورد والزهر
كأنه من تشكي جرحها مقل
يلح منها البكا الدامي وينحدر
يا أمي اليمن الخضرا وفاتنتي
منك الفتون ومني العشق والسهر

هـــا أنـــت فــي كــل ذراتــي ومــلء دمــي
شـــعر «تـــعنقده» الـــذكرى وتعتصــر
وأنـــت فــي حضــن هــذا الشــعر فاتنــة
تــطل مــنه، وحــيناً فــيه تــستتر
وحســب شــاعرها منهــا – إذا احتجبــت
عــن الــلقا – أنــه يــهوى ويــدكر
وأنــهــا فــي مــآقي شــعره حــلم
وأنــها فــي دجــاه اللهــو والــسمر
فــلا تــلم كــبرياها فــهي غــانية
حــسنا، وطبــع الحســان الكبــر والخفــر
مــن هــذه الأرض هــذي الأغنيــات، ومــن
ريــاضــها هــذه الأنــغام تــنتثر
مــن هــذه الأرض حيــث الضــوء يلثمهــا
وحــيث تــعتنق الأنــسام والــشجر
مــا ذلــك الــشدو؟ مــن شــاديه؟ إنهمــا
مــن أرض بلقــيس هــذا اللحــن والــوتر

وبروح المحب العاشق يتحدث هامسا إلى محبوبته في رقة ما بعدها رقة يطري جمالها ، ويصف بهاءها ، وما يحمل لها في نفسه من هيام وعشق ، **يقول** :

ابنــة الحســن والجمــال المدلــل
أنت أحلى من الجمــال وأجمــل
وكأن الحيــاة فيــك ابتــسام
وكأن الخلــود فيــك ممثــل

كل حرف من لفظـك الحــلو فـــردوس

نـــدي وسلسبيـــل مسلســـل

كلما قلت رف من فمـــك الفجـــــر

وغنى الربيع بالعطـــر واخضـــل

أنـــت فجـــر معطـــر وربيـــع

وأنـــا البلبـــل الكئيـب المبلبـل

أنت في كل نـــابض مـــن عروقـــي

وتـــــرٌ عاشـق ولحـنٌ مـرتـل

كلمـــا اســتنطقت معانيـــك شعـــري

أرعـــد القلـــب بالنشـيد وجلجـــل

وانتزفـــتُ اللحـــون مـــن غـــور أغـــوا

ري كأني أذوب مـــن كـــل مفصـــل

وأغنيـــــك والصــــبابات حــــولي

زمر تحتســي قصيـــــدي وتنهـــل

وأنـــاجي هـــواك فـــي معـــوض الأو

هام في شاطىء الظلام المسربـــل

وفـــؤادي يحـــنّ فـــي صـــدري الـــدا

مي كما حن في القيـود المكبـــل

وهواكالغضـــوب نـــار بـــلا نـــار

وقلبي هــــــــو اللهيـب المنلـــل

أنت دنيـــا الجمـــال نمنمهـــا السحـــر

فأغرى بها الجمــــــال وأذهـــل

فتنة أي فتنة هـــــــــــز قيـثـا

ري صباها ففاض بالســحر وانهـل

تسكر الكــأس حــين تسكرهـــا الكـــأ

س وتسقي الرحيق أحلــى وأفضــل

وفتون يهــز شــعري كمــا هــز الــن

سيم البلبيـل زهـــــــراً مبـلـل

وألاقيك فــي ضـميري كمــا لاقــى ال

فــم المستهــام أشهــى مقـبـــل

في دمي مــن هــواك حمــى البـــراك

ين العواتي وألف دنيــــا تزلـزل

وحــوار وحيــن ألقــــاك أخجــل

أنا أهواك للجمال ولـــــــــلإل

هام للفـن للحـــــوار المعســـل

والغرامُ الطهورُ أزكـــــى معانــي

الحب . أسمى مــا فــي الوجــود وأنبــل

فانفحيـنـــــي تحـيّـةً وتلـقــي

نغماً مـــن جوانح الحـب مرسـل

جليلة بنت مرة
قاتلة ومقتولة

اشتهرت نساء العرب بالفصاحة ، وبلاغة القول ، حتى لقد برز منهن من تقول الشعر ، وتحسن القول ، وتسوق الحكمة والقول ليصير مثلا ، أو حكمة خالدة تتناقلها الألسنة جيلا بعد جيل .

وأسوق هذه الحكاية لا لقصد الوقوف على المضمون ، وإنما لاستخلاص مأثور الكلام ، وفصيح القول ، وجمال العبارة .

قصة مقتل كليب

كليب بن ربيعة – اسمه وائل وكليب لقبه ، ولد سنة ٤٤٠ م ، ونشأ في حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى رئاسة الجيش حتى قتله جساس بن مرة سنة ٤٩٤ م ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته ، وغبر بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدّ له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له ، لا يختبئ أحد في مجلسه غيره ، ولا يغير إلا بإذنه ، ولا تورد إبل أحد ولا توقد مع ناره ، ولم يكن بكرى ولا تغلبي يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى إلا بأمره .

وكان يجبر على الدهر فلا تخفر ذمته ، وكان يقول : وحش أرض في جواري فلا يهاج ! وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلاّ بأمره ، وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب ، فكان إذا نزل به كلأ قذف

ذلك الجرو فيه فيعوى ، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلاَّ بإذنه أو من آذن بحرب ، فضرب به المثل في العز فقيل :

أعز من كليب وائل ، وكان يحمي الصيد فيقول : صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئاً.

تزوج كليب بن ربيعة جليلة بنت مرة وكان لها عشرة إخوة أصغرهم يدعى "جساساً".

وحدث أن كليباً دخل على امرأته جليلة يوماً فقال لها: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة ؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس – وهو جساس بن مرة ، كان فارساً شهمًا أبيًا وكان يلقب الحامي الجار، المانع الذمار، فسكت كليب ومضت مدة ، وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها :

من أعز وائل ؟ قالت: أخواي جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وخرج. ثم أن كليباً أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل ؟ فقالت: أخواي ! فأضمرها في نفسه وأسرها وسكت .

وجاءت البسوس فنزلت في جوارهم وكان لها ناقة يقال لها سراب فمرت إبل لكليب بسراب وهي معقولة بفناء بيت البسوس، فنزعت الناقة عقالها واختلطت بإبل كليب الذي كان على حوض الماء ومعه قوسه وسهامه فلما رآها أنكرها ونزع سهماً رماها به فمزق ضرعها فنفرت وهي ترغوه وقد اختلط لبنها بدمها فلما رأتها البسوس صاحت: وأذلاه!!..وامجيراه!! وثارت ثائرة جساس فأسرع إلى فرس له فركبها وحمل معه سلاحه وتبعه أحد فتيان قومه وانطلق

الفتيان ثائرين حتى دخلوا على كليب فقال له جساس: يا أبا المحامد عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها فقال كليب: أكنت مانعي من أن أذود عن حماي! فاشتد الغضب بجساس وعطف عليه فرسه وطعنه برمحه وأقبل عمرو فطعنه أخرى وسقط كليب.

وقعت جليلة بنت مرة بين شقي الرحى، فلقد قتل أخوها جساس زوجها كليب بن ربيعة، وفي مأتم كليب اجتمع عدد من النسوة قلن لأخت كليب: رحّلي الجليلة - أي اطرديها - عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب فقالت لها أخت كليب: يا هذه، أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واتِرنا "الواتر - القاتل"، فخرجت جليلة وهي تجر أعطافها، ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدي، وفراق الشامت! ويلٌ غدًا لآل مرة، من الكرة بعد الكرة فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمت الحُرَّة بهتك سترها، وترقُّب وَتْرها! أسعد الله جد أختي، أفلا قالت: نفرة الحياء، وخوف الاعتداء!

ولما ذهبت إلى أبيها مرة قال لها: ما وراءك يا جليلة ؟

فقالت: ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين زين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد .

فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟

فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة أبا لبُدْنِ تَدَعُ لك تغلب دم ربها.

ثم أنشأت تقول:

يا بنة الأقـــــــوام إن لمت فلا تعـــــــجلي باللوم حتى تسـألي

فـــــإذا أنت تبينـــت الـــذي يوجـــب اللوم فلومي واعذلي

إن تكن أخت امرئٍ ليمــت علــى جــزعٍ منها عــليه فافـــــعلي

جل عندي فعل جـســـاس فيــا حســرتا عما انجلت أو تنجلــي

فعل جســـــــاس على ضني به قاطعٌ ظــهــري ومدنٍ أجـــلي

لو بعــين فقئت عينٌ ســـــوى أختها وانفــقأت لم أحــفـــــل

تحمل العــين قــذى العـــين كما تحــمل الأم أذى ما تــفـتــلي

إنني قـــاتلةٌ مـــقتولةٌ فـــلعل اللـــــــه أن يرتـــاح لـــي

يا قـــــتيلاً قـوّض الدهر بــه ســقــف بيتي جمـيعاً من عل

ورماني فــقده من كـــــــثبِ رمي المصمى بـــه المستأصـــل

هدم البيت الذي اســـــتحدثته وبدا في هــــــدم بيتي الأول

يا نســائي دونكن الــيوم قــد خصتني الدهر بــرزءٍ معضــل

مســـني فــقــد كليبٍ بلظّـــى مــن ورائي ولظّـــى مســتقبلي

ليس من يبكــي ليومـــين كمــن إنما يبكي ليـــوم ينجـــلي

درك الـثائر شـــــافيه وفـــي دركي ثاري ثكل المـــثــكـل

لـــيتــه كان دمي فاحـــتلبوا درراً منه دماً مــن أكــحـــلي

وكان همام بن مرة ينادم المهلهل أخا كليب وعاقده ألا يكتمه شيئاً. فلما ظعن مره بأهله أرسل إلى ابنه همام فرسه مع جارية، وأمره أن يظعن ويلحق بقومه. وكانا جالسين، فمر جساس يركض به فرسه مخرجاً فخذيه. فقال همام:

إن له لأمراً ، والله ما رأيته كاشفاً فخذيه قط في ركض ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى انتهت الجارية إليها ، وهما معتزلان في جانب الحي. فوثب همام إليها، فسارته أن جساساً قتل كليباً، وأن أباه قد ظعن مع قومه، فأخذ همام الفرس فقال له المهلهل : ما شأن الجارية والفرس ؟ وما بالك ؟

فقال: زعمت أن جساساً قتل كليباً.

فضحك المهلهل، وقال: همة أخيك أضعف ، أخوك أضيقُ استًا من ذلك فسكت. ثم أقبلا على شرابهما ، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن ، وهمام يشرب شرف الخائف ، ولم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلاً ، فانسل همام وأتى قومه من بني شيبان ، وقد قوضوا الخيام ، وجمعوا الخيل والنعم ، ورحلوا حتى نزلوا بما يقال له النهى.

ورجع المهلهل إلى الحي سكران ، فرآهم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ فلما أخبروه الخبر قال : لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها ؟ وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه. فانتهوا عن ذلك، ورجع إلى النساء فنهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء عيوناً تبكى إلى آخر الأبد.

وجاءت أشراف تغلِب إلى مرَّة بن ذُهل، وقالوا له: نعرض عليكم خصالاً إمَّا أن تُحيي كليبًا، أو تدفع إليْنا جسَّاسًا قاتل كليب فنقْتله، أو تدفع لنا .

ظهر للقوم أنَّ مرَّة حار في أمره، ولكنَّها خيارات تجْعل الحكيم حيران.

- ما بك يا سيِّد الحي؟

رفع الرَّجُل رأسه قائلاً: أمَّا أن أُحيي كليبًا فهذا لا يكون، وأمَّا أن أدفع إليْكم جسَّاسًا فإنَّه شابٌ طعن على عجل ورحَل، ولا أدْري في أيِّ البلاد صار وظَعَن، وأمَّا أن أدفَعَ لكُم همَّامًا فإنَّه أبو عشَرة وأخو عشَرة وعمّ عشَرة، وكلُّهم فرسان، فلن يسلِموه إليَّ فأدفعه إليْكم يُقْتَل بجريرة غيره وبجناية سواه، وأمَّا أن أمكِّنكم من نفسي فما أنا إلاَّ رجُل لا تلبث الحرْب أن تبدأ فأكون أوَّل قتيل. ولكُم عندي خصلتان: أوَّلهما: أن تأخُذوا أحد أبنائي فتجرّوه بنسعة فتذْبحوه ذبح الجزور، وإلاَّ فالثَّانية: ألف ناقة سوداء المقْتل تضمَنُها بنو وائل.

- إنَّنا لم نأتِ لترذل بنيك أو لتسومنا اللَّبن.

وانصرفوا عنْه راغبين إلى أتُون حرْب، بدأت شرارتُها حكايةً استمرَّت .

ونستخلص من هذه القصة جميل الكلم ، وفصيح العبارة ، فهذه أخت كليب تقول :(رحلة المعتدي وفراق الشامت) قول موجز يحمل في طياته كثيرًا من المعنى جعله مثلا يضرب ويقال فيما يشبهه من مواقف .

وهذه جليلة بنت مرة تقول :

(وكيف تشمت الحُرّة بهتك سترها، وترقُّب وَتْرها! نفرة الحياء، وخوف الاعتداء!) جمل قصيرة موجزة فيها جمال التصوير وفيها من السجع ما يجعل التعبير في قمة عالية من الفصاحة ،ألا يعد ذلك مثلا؟

وتقول جليلة لأبيها – أيضا – مصورة ما آل إليه حال القوم بعد مقتل كليب:

ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين زين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد .

يا له من جمال ، ويا لها من رقة عبارة يزينها السجع غير المتكلف والتصوير الاستعاري الرائع .

شيء من الفكاهة

جاءت الإشارة إلى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة إبراهيم ، ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة إبراهيم : يقول إبراهيم حين زارته الملائكة فلم يعرفهم وخافهم حين بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

[سورة هود: ٧٠-٧٢]

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن اليأس، وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم.

ولا تعني هنا كلمة " سُرَّت ، أو كلمة استبشرت ، أو فرحت " في مكان ضحكت ، لأن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات ، وجاء في القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النمل:١٩]

فهـا هنـا عوامـل الضـحك علـى سـجيتها ماثلـة في نقائضـها الدقيقـة ومصاحباتها التي تقترن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم . هنا الفرق الشاسع بين ضآلة النملة وبين ضخامة الملك الذي أوتيه سليمان .. وهنا رضي سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي وواديها كلها ، ولا يشعر بها سليمان العظيم . وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء.(١)

والضحك فضلاً عن وروده في القرآن الكريم ، فقد تناوله علماء التربية وعلم النفس على أنه ضرب لازم للنفس البشرية ، ففيه الراحة والعزاء " وزبدة رأي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي ، يلجأ إليه الإنسان في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه، وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع .

ومن الناس من يقولون عن الرجل : إنه يمزح أو يقولون عنه إنه يحلم على السواء ، حين يريدون إعفاءه من المؤاخذة ، ولا يريدون الجد معه في المحاسبة

والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الأماني التي تفوقه في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى " (٢) .

فكاهات غنيم :

وقد حظيت الفكاهة بنصيب كبير في ديوان الشاعر غنيم ، ونستطيع أن نستعرض بعض النماذج من شعره الفكاهي على سبيل المثال لا الحصر .

* وقع أحد أصدقائه من الشعراء ضحية نشال (لص) محترف ، فسرق نقوده كلها .. فكتب غنيم يداعبه مبينا له أنه أرهق اللص وخدعه ، إذ لم يجد صيدًا شيئا لخواء جيب الصديق ، يقول :

هون عليك وجفف دمعك الغـالي ... لا يجمع الله بين الشعر والمـال

إنا لفي زمـن فقـد النقـود بـه ... يدمي العيون كفقد الصحب والآل

ثم يتهكم على صديقه الشاعر مداعبا :

من أين أصبحت ذا مال فتسـلبه؟ ... يا أشبه الناس في رقـة الحـال

فيالها سـبعة في جيبك انطلقـت ... وأنت أحـوج مخلـوق لتمثـال

فريسة من يـد السـنور سـائغة ... شتان ما بـين سـنور ورئبـال

عوذ نقودك واعقد حوالهـا عقـدا ... وثيقـة تتحـدى كـل حـلال

قالوا خلت يده من كل مـا ملكـت ... فقلت : بل رأسه من عقله خـال

لم يبق عندك ما تخشى عليه فـنم ... كما أنـام قريـرا نـاعم البـال

نفسي فداؤك ليت اللص صـادفني ... قد يغلب اللص بالإفلاس أمثالي !

ثم يعجب غنيم مما حدث ويتساءل مداعبا : كيف يقضي هذا المسكين بقية أيام الشهر ؟

يا ليت شعري ، ماذا أنت صانعه ؟ أتزمع الصوم حتى شهرك التـالي؟

عش من قريضك في ري وفي شبع إن كان ينتفـع الظمـآن بـالآل

أقسمت ما سلبت تلـك النقـود يـدُ لكنها أبِقَـت من جـيبك البالي

الذئب لا يشتهي لحـم ابـن جلدتـه فكـيف أوقع نشال بنشـال؟ (٣)

* الآل : السراب

* أبق : هرب

ومن فكاهاته اللاذعة : ما قاله عن صديق له مشهور بالخوف والفزع من أقل الأشياء ، أغمي عليه في المخبأ عند أول غارة جوية حدثت إبان الحرب العالمية بمدينة الإسكندرية ، فكتب يقول مداعبا :

أرأيـت صـنع محمـد فـي مخبـأ بالنـاس حافـل

سـمع الصـفير مـدويا فتفككـت منـه المفاصـل

مـا كـان أشـجعه فقـد لا قـى القنابـل بالقنابـل

ووهت عزيمته فأفلت يابس منه وسـائل!

وضاعت من الشاعر ساعة كان يمتلكها ، فحزن عليها كثيرًا ، فكتب يصور حاله حزينا لفقدها :

وسـاعةٍ كالسـوار حـول يـدي حـتى طـواها الزمان للأبـد

ما زال يطوي الزمـان عقربهـا ضاعت فوهى ضياعها ولـدي

ضيعها نجلي الصـغير وكـم حملنـي مـن خسـارة ولـدي

قالوا : فداءٌ له ، فقلت لهـــــم كلاهما فـلذتان مــن كــبــدي

قالوا : التمس غيرها فقلـــت لهــم وهل معي ما يقيم لــي أودي ؟

ثم يبين أن أحواله قد ارتبكت ، واطلخم عليه الأمر بسبب فقدانها ، كيف لا ؟ وهي التي كانت تنظم له أوقاته ، ومن خلالها تتحدد مواعده ، وتنجز أعماله

يقول :

التبســـت أيامي عــــليّ ، فلا أفرق ما بين الســـــبت والأحد

واختل وقتــي فــإن وعــدتك أن أزورك اليوم ، جئت بعــد غــد

أمســـت يــدي بعــدها معطلـــة منظرها في العــيون كالرمـــد

قد لازمت معصمي سـنين إلــى أن أصبحت قطعة مــن الجســد

وفي نهايـة القصـيدة ، يـدعو على مـن سـرقها بـالهلاك والبـوار ، والخسـران

يقول :

شـــتان بينـــي وبـــين لاقطهـــا بات قريرا ، وبت في كــمــد

ليـــت الـــذي طوقـــت بهـــا يـــده في جـيده حبل شد من مســـد

وعن ديك هزيل أقام به للشاعر أحد أصدقائه مأدبة في سفح الهرم ، فكتب

يقول في دعابة ومرح :

يـــا صـــاح مالـــك والكـــرم البخل طبعـك مــن قـــــدم

شــهـــدت ببخلـــك ليلــــــة قمـــراء فـــي ســفح الهــرم

تبـــا لـــديكك يـــا أخـــي هضـــم الحديــد ومـــا هضـــم

ثم يصف هزال الديك وضعفه قائلا :

ديك هزيل الجسم تر ... كله الجرادة بالقدم
في دولة الأديك كان ... من السعاة أو الخدم
خلناه في الأطباق رسما بالمداد وبالقلم
جلد يحيط بأعظم ... لا لحم فيه ولا دسم
زعموه روميا ومنه العرب تبرأ والعجم

اشتبك صديقه (العوضي الوكيل) في شجار مع الجيران ، بسبب كلب فأقاموا عليه قضية وضع بسببها في قفص ، فكتب يداعبه قائلا :

حبسوك في قفص ولست بضيغم ... لكن نزلت به نزول المجرم
اليوم في قفص حللت وفي غد ... تلقي الرحال بقعر سجن مظلم
عجبي عليك يكرم الكلب الذي ... خاصمته وتبيت غير مكرم
فيم اشتباكك بالكلاب ؟ وإنما ... يحنو القريب على القريب المحرم

وذهب يزور صديقه (محمود الخفيف) في منزله ، فقال مداعبا :

صاح قد جعت فهيء ... لي كبابا ورغيفا
واسقني شايا ثقيلا ... قاتل الله الخفيفا

القريب المحرم : هو الذي لو كان أنثى ماحل زواجها ، كالأخ والخال والعم وما إلى ذلك .

ومن فكاهاته الطيبة أنه تآمر عليه صديقان له ، واحتالا عليه حتى دعاهما لمأدبة طعام في مطعم مشهور ، فلما أحس كيدهما له في المغالاة فيما يطلبان

غافلهما وانصرف خارجا من المطعم وتركهما يدفعان ثمن الطعام كله ، وأنشد **يقول في ذلك** :

رامـــا الغـــذاء علـــى حســابي فتقاســـما ثمـــن الكبـــاب
وخلت جيوبهـــــــما فلـــم يجـــدا ســوى رهــن الثيــاب
عضـــا الأنامـــــل بعــــدما عضــا الحمــام بكــل نــاب

من قال : إن عليّ إطعــام المساكين السـغـاب .

أنـــا لا أغـــذي الــبطن يـــو مـــا بالطعـــام أو الشـــراب
لكـــن أغــــــذي العقـــل إن هـــو جـــاع بـــالأدب اللبـــاب

وشرب الشاعر قهوة لم تعجبه عند صديقه العزيز (عزيز) **فقال** :

عزيـــز لـــيس بالرجـــل العزيـــز بخيـــل بخلـــه بخـــل غريـــزي
لديـــه قهـــوة مـــن غيـــر بـــن يحليهــــا بملـــــح إنجليــــزي

ولكن (عزيزا) عاد فبرهن على كرمه ، فدعا الشاعر إلى وليمة ، طيبة أكثر فيها من ألوان الطعام ، **فأنشأ الشاعر يقول** :

أقسمت لم تك يا عزيــز مقصــرا بل كنت مثلي في السخاء وأكثرا
لكـــن بخلـــك لا يـــزول بـــدعوة يا صاح بل لا بـــد أن تتكـــررا

* **اللباب** : الخالص .

● **ومن نوادره** :

شكا الشاعر (العوضي الوكيل) لشاعرنا قرار حظر ذبح المواشي بضعة أيام **فداعبه بهذه الأبيات** :

قـــرار الـــذبائح لمـــا صـــدر بكى ابن الوكيل بـــدمع المطـــر

وأقسم ما شم ريح اللحـــــوم ... ولا ذاقهــا مــرة فــي العمـــر

وهل يأكل الكــبش لحــم الشــياه؟ ... وهل يأكل الثور لحــم البقــر؟

وما أنت واللحم يـــابن الوكيـــل؟ ... بحســبك أكــل لحــوم البشــر

وقال يداعب ابن الوكيل :

يــا بــائع الليمــون فــي الأســواق بــالثمن القليــل

إني أدلك – إن أردت غنى اليهــود – علــى الســبيل

اعرضه في الحفلات بعد سماع شــعر ابــن الوكيــل

وفي مداعبة أخرى لصديقه ابن الوكيل يقول :

أنـــا إن أردت تخلصـــا ... في البيــت مــن ضــيف ثقيــل

أنشدت هذا الضيف بيــتا واحــدًا لابـن الوكـيل ولـو أنني ثنيت أقـــعده الصداع عن الرحيل وهكذا كان الشاعر محمود غنيم خفيف الظل ، ظريفا ، يتمتع بـروح الدعابـة الجميلـة ، والفكاهـة الباسمـة وكـان يشيع جـوا مـن المرح والسرور في نفوس رفاقه وأصدقائه .

الهوامش

١- عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة ، المجلد السادس عشر ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩٥ ، ٣٨٦ .

٢- محمود غنيم ، صرخة في واد (قصيدة : مداعبة صديق) ص ٢٥٣.

٣- نفسه(قصيدة : في المخبأ) ص ،٢٥٨

٤- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : حبسوك في قفص) ص ٥٨٦

٥- نفسه (قصيدة : أي الخفيفين ؟) ص ،٥٨٧

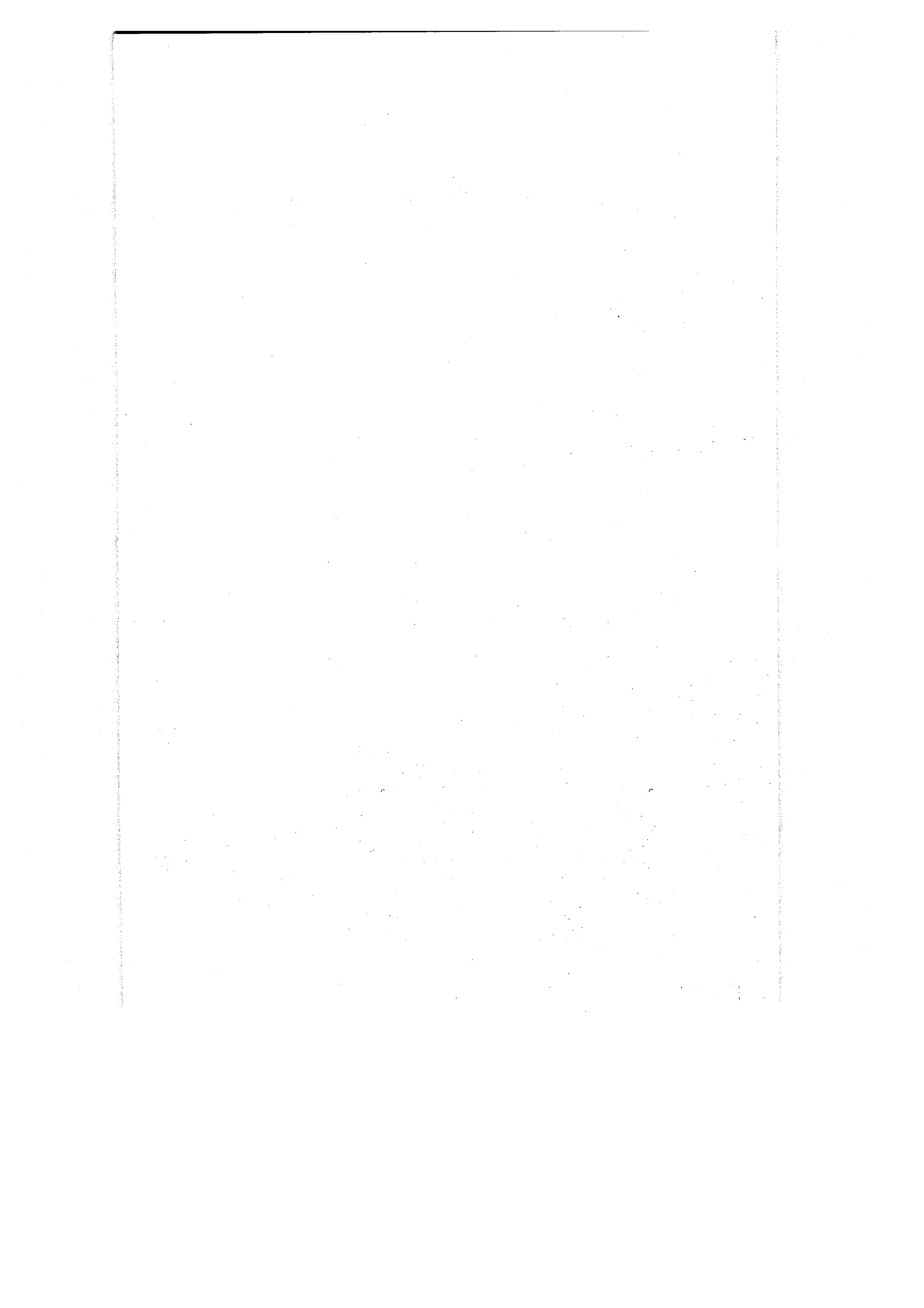
٦- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : مؤامرة على شاعر) ص ٥٨٠

٧- نفسه(قصيدة : بخل غريزي) ص ٥٨١.

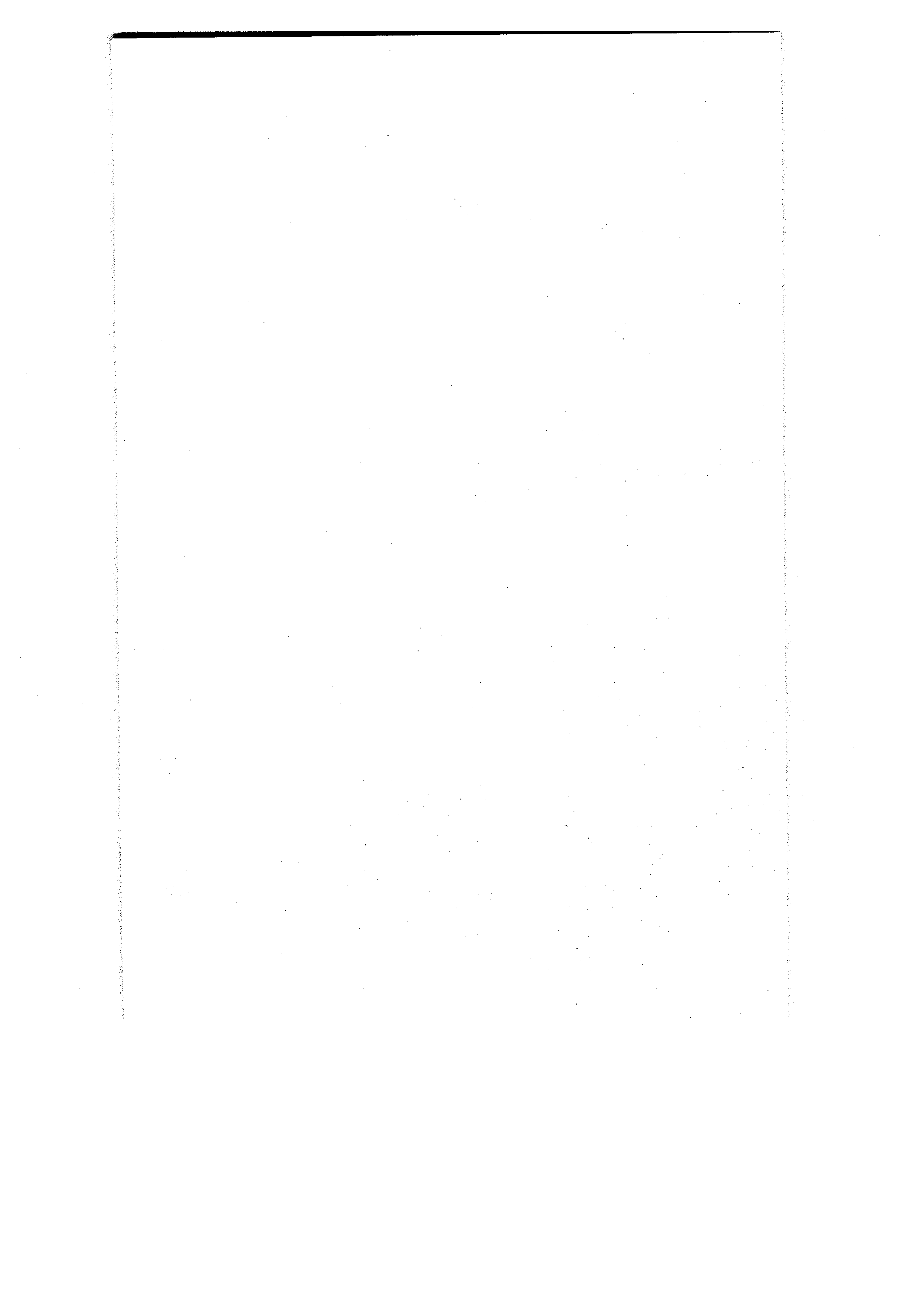
٨- نفسه(قصيدة : قرار الذبائح) ص ٥٨٥.

٩- محمود غنيم ، رجع الصدى (قصيدة : يا بائع الليمون) ص ٨٨٢.

١٠- نفسه (قصيدة : بيت واحد) ص ٨٨٣.



ابن المقفع
ذكاء المرء
محسوب عليه



ابن المقفع

ذكاء المرء محسوب عليه

الذكاء نافع للإنسان مفيد له ، به ينبغ ، وبه يرتقي ، وبه يسود ، وأحيانا يكون محسوبا عليه ضار به ، وهذا ما تخبرنا به حية ابن المقفع وسيرته ، فلنتجول في سيرته الذاتية لنعرف كيف أضر به ذكاؤه :

هو أبو محَمّد عبد الله ، الذي مي بالفارسية : (روزبه بن دازويه) ، قبل أن يعتنق الإسلام، ولد عام ١٠٦ هـ ، وعاصر كلاً من الخلافة الأموية والعباسية.

ولقب أبوه بالمقفع ، وسبب التسمية بهذا الاسم (المقفع) أن الحجاج بن يوسف الثقفي استعمله على خراج يجمعه ، فامتدت إليه يده فعاقبه بالضرب على يديه حتى تقفعتا (أي تورمتا وأُعوجت أصابعهما ثم شُلتا).

درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء، جمع بين الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية، فنال من كل هذه الثقافات نصيبًا وافرًا من الفصاحة والبلاغة والأدب، تلاحظها إذا تصفّحتَ مؤلفًا من مؤلفاته، فتنهال عليك الحكمة من بين الأسطر، وتنعم بالأسلوب السلس، والذوق الرفيع

صفاته :

اشتهر (عبد الله بن المقفع) بذكائه وكرمه وأخلاقه الحميدة ، ونلمح ذلك في كتاباته ، وعلاقاته الاجتماعية وحبه للأصدقاء فقد قال:"ابذل لصديقك دمك ومالك" ، ولما سئل : من أدبك ؟ قال : "كنت إذا رأيت من غيري حسنا آتيه، وإن رأيت قبيحا أبَيْته".

اتهمه حساده بفساد دينه، وربما كان الاتهام واحد من أسباب مقتله ولا نجد في شيء من كتاباته ما يؤكد صدق هذا الاتهام.

كان ودودًا ، صادقا ، حافظا للجميل ، يدل على ذلك قوله :"إذا أسديت جميلاً إلى إنسان فحذار أن تذكره وإذا أسدى إنسان إليك جميلاً فحذار أن تنساه "

مؤلفاته :

أهدى ابن المقفع إلى المكتبة العربية كثيرًا من التأليف والتصانيف العظيمة النفع فقد نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة. وله في الكتب المنقولة الأدب الصغير والأدب الكبير.

يتحدث في الأدب الكبير عن السلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به .

(من الموضوعات التي وردت في كتاب الأدب الكبير)

أداء الأعمال

إذا تراكمت عليك الأعمال، فلا تلتمس الرَّوْحَ في مدافعتها يوم بيوم والروغان منها فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها ، والفراغ منها ، واعلم أن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك ، والضجر هو الذي يراكمها عليك ، فتعهد من ذلك في نفسك خصلة رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال وذلك أن الرجل يكون في أمر أموره فيرد عليه شغل آخر أو يأتيه شاغل من الناس يكره إيتاءه ، فيكدر ذلك بنفسه تكديرا يفسد ما كان فيه وما ورد عليه حتى لا يحكم واحدا منها ، فإذا ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك وعقلك اللذان تختار بهما الأمور ، ثم اختر أوْلي الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ولا يعظمن عليك فوت ما فات ولا تأخير ما تأخر....:)

ومن أقواله في الأدب الكبير:

اعلم أن المستشار ليس بكفيل، وأن الرأي ليس بمضمون، بل الرأيُ كله غررٌ لأن أمور الدنيا ليس شيءٌ منها بثقة، ولأنه ليس من أمرها شيءٌ يدركه الحازمُ إلا وقد يدركهُ العــاجزُ، بل ربما أعيى الحزَمَةَ ما أمكن العَجَزَةَ. فإذا أشار عليك صاحبك برأي، ثم لم تجد عاقبته على ما كنتَ تأملُ فلا تجعل ذلك عليه ذنبًا ولا تلزمه لوْمًا وعذلاً بأن تقول: أنت فعلتَ هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنت لم أفعل، ولا جرمَ لا أطيعك في شيء بعدها، فإن هذا كلهُ ضجرٌ ولؤمٌ وخفةٌ.

فإن كنت أنت المشير، فعمل برأيك أو تركَه، فبدا صوابك، فلا تمنن به ولا تكثرنّ ذكره إن كان فيه نجاحٌ، ولا تلمه عليه إن كان قد استبان في تركه ضررٌ بأن تقول: ألم أقل لك افعل هذا؟! فإن هذا مُجانبٌ لأدب الحكماء.

ومن قوله :

إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوبُ فانظر أيهُما أقربُ إلى هواك فخالفه فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى.

وليجتمع في قلبك الافتقارُ إلى الناس والاستغناء عنهم، وليكن افتقارك إليهم في لين كلمتك لهم، وحسن بشرك بهم. وليكن استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك.

وقوله :

اعلم أن لسانك أداةٌ مُصلتةٌ، يتغالبُ عليه عقلُك وغضبُك وهواك وجهلك. فكُل غالبٍ مستمتعٌ به، وصارفه في محبته، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإن غلب عليه شيءٌ من أشباه ما سميتُ لك فهو لعدوك. فإن استطعتَ أن تحتفظ به وتصُونهُ فلا يكونَ إلا لك، ولا يستولي عليه أو يشاركك فيه عدوك، فافعل.

وقوله أيضا :

إذا أنابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليتَ معه: إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية، وإما بالخذلان فتحتملُ العارَ. فالتمس المخرجَ عند أشباه ذلك، وآثر مروءتك على ما سواها.

فإن نزلت الجائحةُ التي تأبى نفسك مشاركةَ أخيك فيها فأجمل، فلعلّ الإجمال يسعك، لقلة الإجمال في الناس.

وإذا أصاب أخاك فضلٌ فإنه ليس في دنوك منه، وابتغائك مودته، وتواضعك له مذلةٌ. فاغتنم ذلك، واعمل به.

ويتحدث في الأدب الصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة .

من أقواله في الأدب الصغير:

إذا هممت بخيرٍ فبادر هواك لا يغلبك، وإذا هممت بشرٍّ فسوِّف هواك لعلك تظفر، فإنّ ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغنمُ.

ومنه قوله :

لا يمنعنك صغرُ شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صوابًا، والاصطفاء لما رأيتَ من أخلاقه كريمًا، فإنّ اللؤلؤة الفائقة لا تهانُ لهوانِ غائصها الذي استخرجها.

وقوله:

رأسُ الذنوب الكذبُ ؛ فهو يؤسسُها ويتفقدها ويثبتها، ويتلونُ ثلاثة ألوان: بالأمنية، والجحود، والجدل، فيبدو لصاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزينُ له من الشهوات، فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى ، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة، فإن أعياه ذلك ختم بالجدل، فخاصم عن الباطل، ووضع له الحجج والتمس به التثبت، وكابر به الحق حتى يكون مسارعًا للضلالة، ومكابرًا بالفواحش.

مؤلفاته:

- الدرة الثمينة والجوهرة المكنونة.
- أيين نامة . في عادات الفرس.
- التاج . في سيرة أنو شروان.
- أيساغوجي . المدخل.
- الأدب الصغير.
- الأدب الكبير.
- رسالة الصحابة.
- كليلة ودمنة (نقله عن الهندية)

من " رسالة الدرة اليتيمة "

يُضرَب بها المثل لبلاغتها وبراعة منشئها، وهي رسالة في نهاية الحسن تشتمل على محاسن من الآداب، يقول :

"ابذل لصديقك دمك، ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.

إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيا يعجبك فلا تنتحله تزينا به عند الناس، واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذاك سخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارًا، فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس، ومن تمام حسن الخلق والأدب أن

تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت.

سبب مقتله:

في ظل الدولة العباسية اتصل ابن المقفّع بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور واستمر يعمل في خدمته حتى قتله سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور.

والأرجح أن سبب مقتله يعود إلى المبالغة في صيغة كتاب الأمان الذي وضعه ابن المقفع ليوقّع عليه أبو جعفر المنصور، أماناً لعبد الله بن عليّ عم المنصور. وكان ابن المقفع قد أفرط في الاحتياط عند كتابة هذا الميثاق بين الرجلين (عبد الله بن علي والمنصور) حتى لا يجد المنصور منفذاً للإخلال بعهده. ومما جاء في كتاب الأمان:

إذا أخلّ المنصور بشرط من شروط الأمان كانت "نساؤه طوالق، ودوابه حُبس، وكان الناس في حلّ من بيعته"، مما أغاظ المنصور فقال: "أما من أحد يكفينيه"؟ وكان سفيان بن معاوية يبيّت لابن المقفع غضبا منه وغيظا ،لأن ابن المقفع – كما روي – كان يتهكم عليه ، فقد كان سفيان طويل الأنف ، فكان ابن المقفع كلما مر به يقول له : السلام عليكما ، فيسأله من معه : كيف تقول له السلام عليكما ، وهو وحده وليس معه أحد ؟ فيجيب ابن المقفع : هو وأنفه فانتهزها فرصة عندما طلب المنصور التخلص منه ، ولما حضر قيّده وأخذ يقطعه عضواً فعضواً ويرمي به في التنور ويكرهه على أكل جسده مشويًا حتى مات.

وعلى أية حال ؛ سواء أكان هذا سبب قتله أم شعور المنصور بتدخله في الشؤون السياسية أم أسباب أخرى فالملاحظ أن ذكاء ابن المقفع ، وما يتمتع به من تميز ، كان الدافع وراء مقتله تصديقا لمقولة أن ذكاء المرء محسوب عليه فقد أفرط في صياغة شروط عهد الأمان ، ولم يراع مكانة الخليفة ، وأقدار الرؤساء فأوغر صدور من حوله :الخليفة ، سفيان بن معاوية ، وغيرهما من المحيطين به وكان عليه أن يستخدم ذكاءه فيما يدعم مكانته فيستل ما في صدورهم من غضب وحسد ، لكنه أثار حفيظتهم فكان جزاؤه ما كان .

ذكريات شاعر

ستظل الكلمة الصادقة خير معبر عما في قلب الإنسان ، ولقد أنعم الله على أمة العرب بنعمة القول ، وفصاحة الإنسان ، فأكرمهم بنزول القرآن ، ليكون المرجع الأسمى ، والمصدر الأوفى .

وما أجمل ما قالت العرب تصويرًا لحياتهم ، وتعبيرًا عن دخائلهم ، ومكنون مشاعرهم .

وقد كان البارودي شاعر السيف والقلم صادق المشاعر ؛ يمتلك ناصية البيان واسع الثقافة موفور الخبرة ، فجاء شعره صدى لشخصيته ، معبرًا بصدق عن أحاسيسه الفياضة ، فظل معينا خالدا تتغنى به الأجيال وتطرب .

ولنقرأ معا هذا النص الطيب يحن فيه الشاعر ويشتاق لأيام الصبا ، وعهد الشباب الذي ولى بغير رجوع ، ويجتر آلام النأي ، ولواعج الشوق والتغرب في منفاه الموحش في سرنديب ، **يقول** :

ردوا عليَّ الصبا منْ عصريَ الخالي

ردوا على الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البـالي ؟

ماض من العـيش ما لاحت مخايله ... في صفحة الفكر إلا هـاج بلبالي

سلت قلوب؛ فقرت في مضـاجعها ... بعـد الحنين وقلبي ليس بالسالي

لم يدر من بات مسرورا بـلـذته ... أني بنار الأسى من هجره صالي

يا غاضبينَ علينا ! هلْ إلى عـدة ... بالوصلِ يـومٌ أناغي فيهِ إقبالي

غِبْتُمْ؛ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَـتِـكُمْ ... وَساءَ صنعُ الليالي بعدَ إجـمالِ

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُنِي مِـنْكُمْ عَلَى ثِقَـة ... حتى منيتُ بما لمْ يجرِ في بالـي

لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ عتباً ، ولكنها تحريفُ أقـــوالِ
وَ منْ أطاعَ رواةَ السوءِ – نفـرهُ عَـنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أدهى المصائبِ غدرٌ قـبلهُ ثـقـة وَأَقبَحُ الظّلْمِ صدٌّ بَعْـدَ إِقْـبَالِ

****

لا عـيبَ فيَّ سـوى حريةٍ ملكتْ أعنتي عنْ قبولِ الذلِّ بالـمـالِ
تبعتُ خطةَ آبائي ؛ فسـرتُ بها عَـلـى وَتِيرَةِ آدَاب وَآسَـالِ
فَمَا يَمُرُّ خَـيَالُ الْغدْرِ فِي خَـلَدِي وَلاَ تَلُوحُ سِمَاتُ الشَّـرِّ فِي خَالِي
قلبي سليمٌ ، ونفسي حـرهٌ رَيـدي مأمونةٌ ، ولساني غيرُ ختـالِ
لَكـنَّني فِي زَمَانٍ عِشْتُ مُغْتَربـاً في أهلهِ حينَ قـلتْ فيهِ أمثـالي
بَلَوْتُ دَهْرِي؛ فَمَا أَحْمَدْتُ سِـيرتَهُ في سابقٍ من لياليهِ ، وَ لاَ تـالي
حَلَبتُ شطْرَيْهِ: منْ يُسرٍ ، وَمَعْسُرَة وَذُقْتُ طَعْمَيهِ: مِنْ خِصبٍ، وَإِمْحَالِ
فَمَا أَسِـفْتُ لِبُؤْسٍ بَعْـدَ مَقْـدُرَة وَلاَ فرحتُ بوفرٍ بعدَ إقـلالِ
عَفَافَةٌ نَزَّهَـتْ نَفْسِي؛ فَمَا عَلِقَـتْ بلوثةٍ منْ غبارِ الـذمِّ أذيـالي
فاليومَ لا رسني طوعُ القيـادِ ، ولاَ قَلْبِي إِلَى زَهْـرَةِ الدُّنْيَا بِمَـيَّالِ
لَمْ يَبْقَ لِي أَرَبٌ فِي لـدَّهْرِ أَطْلُبُـهُ إلاَّ صحابةُ حـرٍّ صادقِ الخـالِ
وَأَيْنَ أُدْرِكُ مَا أَبْغِيهِ مِنْ وَطَـرٍ والصدقُ في الدهر أعيا كلَّ محتـالِ ؟

****

لا في "سرنديبَ" لي إلفٌ أجاذبهُ فضلَ الحديثِ ولاَ خلٌّ ؛ فيرعى لـي
أبيتُ منفـرداً فـي رأس شـاهقة مثلَ القطاميِّ فوقَ المربإِ العالي
إذا تلفتُّ لمْ أبصرْ سوى صـورٍ فِي الذِّهْـنِ، يَرْسمُها نَقَاشُ آمالي
تهفو بيَ الريحُ أحياناً ، ويلحفنـي بردُ الطلالِ ببردٍ منـهُ أسـمالِ
فَفِي السَّمَاءِ غُـيُـومٌ ذَاتُ أَرْوِقَـة وفي الفضاءِ سيولٌ ذاتُ أوْشـالِ

كَأَنَّ قَوْسَ الْغَـمَامِ الْغُـرِّ قَنْطَـرَةٌ   معقودةٌ فوقَ طامي الماءِ سـيالِ

إذا الشعاعُ تراءى خـلفها نشرتْ   بَـدائعاً ذَاتَ أَلْـوَانٍ وَأَشْـكَالِ

فَلَوْ تَرَانِي وَبُـرْدِي بِالنَّـدى لَثِـقٌ   لخلتني فرخَ طيرٍ بـينَ أدغـالِ

غَالَ الرَّدى أَبَوَيْهِ ؛ فَهْـوَ مُنْقَطِـعٌ   فِي جَوْفِ غَيْناءَ، لاَ رَاعٍ، وَلاَ وَالِي

أزيغبَ الرأس ، لمْ يبدُ الشكيرُ بـهِ   ولمْ يصنْ نفسهُ منْ كيدِ مغتـالِ

كَأَنَّـهُ كُـرَةٌ مَلْسَـاءُ مِـنْ أَدَمٍ   خَفِيَّةُ الدَّرْزِ، قَدْ غُلَّتْ بِجِرْيـالِ

يظـلُّ في نصبٍ ، حرانَ ، مرتقباً   نَقْعَ الصَّدَى بَيْنَ أَسْحَارٍ وآصَالِ

يكـادُ صوتُ البزاةِ القمرِ يقـذفه   مِنْ وَكْـرِهِ بَيْنَ هابي التُرْبِ جَوَّالِ

لا يستطيعُ انطلاقاً منْ غـيابتهِ   كأنما هـوَ معـقولٌ بعـقـالِ

فذاكَ مثلي ، وَ لمْ أظلمْ ، وربتمـا   فضلتهُ بجوى حزنٍ ، وإعـوالِ

شَـوْقٌ، وَنَأْيٌ، وَتَبْرِيحٌ ، وَمَعْـتَبَةٌ   يا للحميةِ منْ غدرٍ وإهـمالِ

****

أصبحتُ لا أستطيعُ الثوبَ أسـحبهُ   وَقَدْ أَكُونُ وَضَافِي الدِرْعِ سِرْبَالِي

وَ لاَ تكادُ يدي تدنو شـبا قلمـي   وَكَانَ طَوْعَ بَنَانِي كُـلُّ عَـسَّالِ

فَإِنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْـرَتِهِ   فَالدَّهْـرُ مَصْـدَرُ إِدْبَارٍ وَإِقْـبَالِ

وَإِنْ غَـدَوْتُ كَرِيمَ الْعَـمِّ وَالْخَالِ   بصدقِ ما كانَ منْ وسمي وَإغفالي

راجعتُ فهرسَ آثاري فما لمحتْ   بصيرتي فيهِ ما يزري بأعمـالي

فَكَيْفَ يُنْكِرُ قَوْمِي فَضْـلَ بَـادِرَتِي   وَقَدْ سَرَتْ حِكَمِي فِيهِمْ، وَأَمْثَالِي؟

أنا ابن قولي وحسبي في الفخار بهِ   وإنْ غدوتُ كريمَ القسمِ وَالخـالِ

ولي منَ الشِعرِ آياتٌ مُـفَـصَّـلَةٌ   تلوحُ في وجنةِ الأيامِ كالخـالِ

ينسى لها الفاقدُ المحزونُ لوعتـهُ   ويهتدى بسـناها كـلُّ قـوالِ

فانظرْ لقولي تجدْ نفسي مصـورة   فِي صَفْحَتَيْهِ؛ فَقَوْلِي خَطُّ تِمْثَالِي

ولاَ تغرنكَ فــي الــدنيا مشــاكلة بينَ الأنامِ ؛ فليسَ النبعُ كالضالِ
إنَّ ابْــنَ آدَمَ لَــوْلاَ عَقْلُــهُ شَــبَحٌ مُــرَكَّبٌ منْ عظَامٍ ذَاتِ أَوْصَالِ

****

نركز في هذه الأبيات على نقطتين مهمتين بارزتين في شعر البارودي ؛

هذا النبع الثر الفياض من الحكم الذي أنتجته تجربته الواسعة ، **كقوله** :

وَ منْ أطاعَ رواةَ السوءِ – نفــرهُ عَــنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ

وقوله :

أدهى المصائبِ غــدرٌ قــبلهُ ثــقة وَأَقْــبَحُ الظّلْمِ صَدٌّ بَعْـدَ إِقْــبَالِ

وقوله :

فَإِنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْــرَتِهِ فَالدَّهْـــرُ مَصْــدَرُ إِدْبَارٍ وَإِقْبَالِ

وقوله :

ولاَ تغرنكَ فــي الــدنيا مشــاكلة بينَ الأنامِ ؛ فليسَ النبعُ كالضالِ

وقوله

إنَّ ابْــنَ آدَمَ لَــوْلاَ عَقْلُــهُ شَــبَحٌ مُــرَكَّبٌ منْ عظَامٍ ذَاتِ أَوْصَالِ

وهذه الصياغة القوية الجزلة التي نلمحها في مفرداته وجمله **مثل قوله** :

أدهــى المصــائبِ غــدرٌ قــبلهُ ثقــة

وقوله :

أَقْــبَحُ الظُّــلْمِ صَــدٌّ بَعْــــدَ إِقْــبَالِ

وقوله :

فَمَا أَسِفْتُ لِبُؤْسٍ بَعْــدَ مَقْــــدُرَة وَ لاَ فرحتُ بوفــرٍ بعدَ إقــلالِ

وقوله :

فإنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ نَضْــرَتِهِ	فَالدَّهْــر مَصْـــدَرُ إِدْبَارٍ وَإِقْــبَالِ

أما المقدمة الغزلية ففيها رقة الفارس ، وإحساس المحب ، ولواعج الشوق ونيران الأسى ، وعفة العربي ، وصفاء قريحته **وانظر مرة أخرى إلى هذه المقدمة الغزلية :**

ردوا على الصبا من عصري الخالي	وهل يعود ســواد اللمة البالي ؟
ماض من العيش ما لاحت مخايله	في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي
سلت قلوب؛ فــقرت في مضاجعها	بعد الحنين وقلبي ليس بالســالي
لم يدر مــن بات مسرورا بــلذته	أني بنار الأسى من هجره صالي

****

يا غاضبينَ علينا ! هلْ إلى عــدة	بالوصــلِ يــومٌ أناغــي فيهِ إقبالي
غِــبْتُمْ؛ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعدَ فُــرقَتِكُمْ	وَ ساءَ صنعُ الليالي بعدَ إجمــالِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُني مِنْكُمْ عَلى ثِقَـــة	حتى منيتُ بما لمْ يجــرِ في بالي
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْـتَحِقُّ بِهِ	عتباً ، ولكنها تحــريفُ أقــوالِ

****

رحم الله البارودي فارس السيف والقلم .

ليتها كانت ......!

خارج القاعة التي تجلس فيها لجنة الامتحان ، كانت تسود بين المتسابقين حالة من الخوف والفزع ، بدا ذلك واضحا في حركاتهم وأفعالهم ، منهم من يقطع مسافة الأمتار العشرة التي أمام حجرة اللجنة ذهابا وإيابا دون توقف ، ومنهم من راح يقوم بغناء بعض المقاطع من الأغاني المشهورة استعدادا لأدائها أمام اللجنة وتعالت الأصوات حتى لا تستطيع أن تميز من بينها قولا بعينه ، ولم تتحمل بعض المتسابقات لحظات الانتظار المخيفة ـ نهارت دموعهن ورحن يتشبثن بمن حولهن .. وهناك على يمين القاعة تحت شجرة عجوز أسقط الخريف ما عليها من أوراق فبدت التجاعيد في جذعها الضارب في أعماق الزمن عروقا نافرة جافة كأنها ظمآن يلهث من أجل قطرة ماء .... تحت هذه الشجرة جلس محمد مسندًا ظهره الفتيّ إليها ، ممددًا رجله اليمنى إلى أقصاها ، ثانيا اليسرى ، واضعا ذقنه عليها بينما يده اليمنى تحمل حصاة تلو حصاه ، يحملها بيد ويتأملها لحظة ، ثم يلقيها أمامه مصوبا إياها إلى المجهول الذي لا يكاد يتبين ملامحه ..... أمه تجلس بجواره تربت بيدها بين الحين والآخر على رأسه تشد من أزره ، وتعضد من جانبه ، فيرنو إليها بعين ملؤها الحنان والبر، ثم يتناول يدها ويضعها بين يديه ويرفعها إلى فمه ويقبلها .

نودي اسمه في مكبر الصوت الموجود أمام القاعة ، فانتصب واقفا ، ووقفت معه أمه، وهي لا تدري سبب وقوفه ، فأشار إليها إشارة جعلتها ترفع يديها إلى السماء ضارعة تدعو له .

تقدم محمد وولج من باب الحجرة المفتوح ...أصبح في مواجهة اللجنة المكونة من كبار المطربين والنقاد ، عرفهم بنفسه ثم تقدم خطوة ليقف في وسط الدائرة المرسومة على أرض الحجرة ، **وقيل له بصوت آمر** :

" أسمعنا ما تريد يا سيد محمد ".

ارتفع صوت محمد بالغناء ، وراح يردد مقطعا من إحدى الأغاني المشهورة ، كان قد حفظه جيدًا وتدرب على أدائه مرات ومرات ، انساب صوته عذبا ...تردد في أرجاء الحجرة بردًا وسلامًا على قلوب أعضاء اللجنة اعترتهم حالة من الطرب .....أرهفوا السمع معجبين ، وعلت الابتسامة وجوههم جميعا فصفقوا له ، وأجمعوا على أنه أفضل المتسابقين ، ووقعوا له فورًا شهادة التفوق وقدموها إليه ...استوقفوه يتناقشون معه عن بدايته في الغناء ، وأين غنّى ؟ومتى ؟ وفوجئ الجميع بامرأة في العقد الخامس من عمرها تندفع من الباب إلى داخل الحجرة وهي تشير إشارات غير مفهومة واتجهت نحو محمد تتحسسه بيدها فأشار لها بشهادة التفوق التي حصل عليها ......علت البسمة وجهها ، أصدرت أصوات غير مفهومة ...التفت محمد إلى أعضاء اللجنة قائلا : إنها أمي !!! فقال لها رئيس اللجنة : مبارك ؛ لقد فاز محمد . فنظرت إليه ولم تفهم ، فدمعت عين محمد وقال : العالم كله يسمعني إلاّ أمي ، لأنها صماء ! ..... لا تسمع ...!!

جالت دمعة حزن في أعين أعضاء اللجنة متأثرين بما يرون ، وبسرعة كتب أحد أعضاء اللجنة على ورقة كبيرة عبارة مضمونها :(محمد صوت عظيم) ، ورفع الورقة أمام أم محمد ، .....قرأتها .. قفزت من فوق الأرض .... عانقت ابنها محمد – وسط دهشة الحاضرين – بينما وضع محمد رأسه على صدرها الحاني ، وراح في بكاء شديد.

توعية الأجيال أمانة

كنت في حلقة من حلقات الدرس ؛ أتناول مع طلابي تحليل نص من النصوص الأندلسية في الوصف ، فطرحت سؤالاً على الدارسين : ماذا تعرف عن الأندلس ؟ ولم أتلق ردًا من الطلاب ، سوى طالب همس في تردد ، وعلى استحياء : أعتقد أنها أسبانيا الحالية ! وحاولت أن أرفده ببعض الجمل عن الأندلس مشجعا ليسترسل في الإجابة ، ولكنه توقف ، ولم يواصل ، فعرفت أن هذا كل ما يعرفه الطالب عن الأندلس ، وأعدت السؤال مرة أخرى ، علّي أجد جوابا ، فلم أر من مجيب ، وراح الطلاب ينظرون إلي في دهشة كأنهم يسمعون السؤال للمرة الأولى في حياتهم ، وكأنهم لم يمروا على مثل السؤال في المرحلة الثانوية ، أو لم يصل إلى مسامعهم من وسائل الإعلام العربية .

يا للكارثة ! جيل كامل ، وربما سبقته أجيال لم يسمع بالأندلس ولم يقرأ عنها في كتب الأدب ، ولم يلم بحضارة العرب فيها ، وكيف خاضوا البحار واعتلوا ظهور الأمواج ، واقتحموا شبه جزيرة أيبريا فاتحين ، ليقيموا حضارة قوية كانت ملء السمع والبصر .

شعرت بتقصيرنا في حق هذا الجيل ، ولم نوفه حقه ، إذ من الواجب أن يعرف أبعاد هذه الحضارة العريقة في الأندلس الرطيب والأسس التي قامت عليها ومعالم هذه النهضة المزدهرة ، وأثرها على الغرب والعالم كله ، وكيف ضاع هذا الفردوس ؟

وعبر هذه السطور أعطي موجزا عن هذه الأندلس وحضارته ، وما كانت عليه الحياة العربية آنذاك ، على ما أكتبه يقدم معلومات تنفع من يقرأ ، وأكون قد أديت ما عليّ من واجب البصرة والتعريف بماض نسيناه ، ويجب ألا ننساه وأن يظل حاضرًا في ذاكرتنا ، نأخذ منه العبر ، ونطيل فيه النظر ، علنا نستبين الرشد ، ونتلمس موضع خطانا فلا نضل في طريق الحضارة ، فلا نضيع في دروب الحياة .

تاريخ الأندلس

مرحلة ما قبل فتح الأندلس:

وصل المسلمون إلى المغرب الأقصى (مملكة المغرب الحالية) المواجه لشبه جزيرة أيبيريا، أو كما تسمى قديما الأندلس. وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ). بقيادة القائد حسان بن النعمان، والي أفريقيا وفاتحها، عام (٨٥هـ)، وجاء من بعده موسى بن نصير الذي توجّه من مصر إلى القيروان مكملاً ما بدأه سابقه.

وقام موسى بمجهود كبير في تثبيت دعائم الدين الإسلامي في سكان الشمال الأفريقي (البربر) وحرص جاهدا على تقوية البحرية الإسلامية، متخذا من القيروان قاعدة ينطلق منها الجنود الفاتحون، فدخل كثير من البربر في الإسلام وأصبحوا فيما بعد ركيزة اعتمد عليها القائد العربي طارق بن زياد في فتوحاته ومعاركه.

استولى المسلمون على طنجة ذات الموقع المهم بين القارتين الأوروبية والأفريقية عام (٨٩هـ/٧٠٨م)، وحوّلها موسى بن نصير إلى مركز عسكري لتموين الحملات باتجاه المناطق المجاورة.

الفتح الإسلامي للأندلس

أرسل موسى بن نصير القائد الشاب طارق بن زياد من طنجة مع جيش صغير من البربر والعرب ، عبر المضيق الذي سمي على اسمه، فهزم القوط الغربيين وقتل ملكهم لذريق (Roderic or Rodrigo) في معركة جوادالیتي.أو معركة وادى برباط في عام ٩٢ هـ .

وظلت الأندلس بعد ذلك خاضعة للخلافة الأموية كإحدى الولايات الرئيسة إلى أن سقطت الخلافة الأموية سنة (١٣٢هـ)، واتجه العباسيون إلى استئصال الأمويين. وتمكن عبد الرحمن بن معاوية -عبد الرحمن الداخل- أن يفلت من قبضة العباسيين، فهرب إلى أخواله في الشمال الإفريقي، وأقام عندهم فترة من الزمن، ثم فكر في دخول الأندلس ليبتعد عن العباسيين، فراسل الأمويين في الأندلس.

بحلول عام ٧١٨ استولى المسلمون على معظم أيبيريا .

التوسع الإسلامي

واصل المسلمون التوسع بعد السيطرة على معظم أيبيريا لينتقلوا شمالاً عبر جبال البرنييه حتى وصلوا وسط فرنسا وغرب سويسرا.

حكام الأندلس الأمويين هم بالترتيب:

- عبد الرحمن الداخل الملقب (صقر قريش) - حتى عام ١٧٢ هجرية.
- هشام الأول بن عبد الرحمن - من عام ١٧٢ إلى عام ١٨٠ هجرية.
- الحكم بن هشام - من عام ١٨٠ إلى عام ٢٠٦ هجرية.
- عبد الرحمن الأوسط بن هشام - من عام ٦ ٢ إلى عام ٢٣٨ هجرية.

- محمد بن عبد الرحمن - من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٣ هجرية.
- المنذر بن محمد - من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٥ هجرية.
- عبد الله بن محمد - من عام ٢٧٥ إلى عام ٣٠٠ هجرية.
- عبد الرحمن الثالث الناصر - من عام ٣٠٠ إلى عام ٣٥٠ هجرية.
- الحكم بن عبد الرحمن - من عام ٣٥٠ إلى عام ٣٦٦ هجرية.
- هشام الثاني بن الحكم - من عام ٣٦٦ إلى عام ٣٩٩.

ملوك الطوائف:الأندلس في القرن الخامس الهجري

بدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس عام (٤٢٢هـ) عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية بالأندلس، وكان هذا الإعلان بمثابة إشارة البدء لكل أمير من أمراء الأندلس ليتجه كل واحد منهم إلى بناء دويلة صغيرة على أملاكه ومقاطعاته، ويؤسس أسرة حاكمة من أهله وذويه، وبلغت هذه الأسر الحاكمة أكثر من عشرين أسرة أهمها:

- بنو عباد بإشبيلية (٤١٤هـ - ٤٨٤هـ).
- بنو جهور في قرطبة (٤٢٢هـ - ٤٤٩هـ).
- بنو حمود بمالقة (٤٠٧هـ - ٤٤٩هـ).
- بنو زيري بغرناطة (٤٠٣هـ - ٤٨٣هـ).
- بنو هود بسرقسطة (٤١٠هـ - ٥٣٦هـ).
- بنو رزين بالسهلة (٤٠٢هـ - ٤٩٧هـ).
- بنو ذي النون بطليطلة (٤٠٠هـ - ٤٧٨هـ).
- بنو الأفطس في بطليوس (٤١٣هـ - ٤٨٧هـ).

- بنو عامر في بلنسية ١٠١٦-١٠٨٥ م.

دولتا المرابطين والموحدين

بسبب ضعف دول الطوائف عن الدفاع عن التراب الأندلسي ضد الهجوم الأسباني وسقوط طليطلة في أيدي الأسبان، طلب الأندلسيون المعونة من قائد المرابطين في المغرب الأمير يوسف بن تاشفين أن يهب لمساعدة الأندلس وانتهت مساعدته بهزيمة كاسحة للأسبان في موقعة الزلاقة واستعادة بعض المدن لكنه فشل في استعادة طليطلة والقضاء على ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس تابعة لدولة المرابطين في الأندلس الذين دافعو عن الأندلس ضد الأسبان في عدة مواقع إلا أنهم فشلوا في الدفاع عن سرقسطة بقيام الثورة في المغرب بقيادة الموحدين وانهيار دولة المرابطون تحولت تبعية الأندلس إلى الموحدين الذين حملوا راية الدفاع عن الأندلس في عدة مواقع أشهرها معركة الارك ولكن جيوش الموحدين ما لبث أن هزمت في موقعة العقاب على الرغم من ضخامتها وكبرها مما تسبب في انهيار دولة الموحدين نهائيا و مع انهيار الحكم الموحدي في الأندلس بدأت مرحلة جدية من الانهيار في الأندلس.

بدايات الضعف في الأندلس :

يرى المؤرخون الأسبان أنه في ٧١٨ بدأ ضعف الأندلس وذلك في معركة كوفادونجا أو مغارة دونجا وفيها انهزم ابن علقمي اللخمي شر هزيمة من قوات "بلايه"، وانتهت بتأسيس أولى الإمارات الفرنجية في شمال الأندلس[١].

معركة بلاط الشهداء :

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشه وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس واتجه شرقاً ليضلل المسيحيين عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة "أرل" التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى "دوقية"، فانتصر على الدوق انتصاراً حاسماً، ومضى الغافقي في طريقه متتبعاً مجرى نهر "الجارون" فاحتل "بردال" واندفع شمالاً ووصل إلى مدينة "بواتييه". في بداية غزو جنوب فرنسا.

ثم هُزم المسلمون أمام شارل مارتل وقتل قائدهم وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.

الاستيلاء على طليطلة :

بعد أن ظلت الدولة الإسلامية في الأندلس بضعا من الزمن متماسكة موحدة بدأت تقام ممالك فرنجية في شمال إسبانيا المحررة مثل ممالك "قشتالة" و"أراجون" و"مملكة ليون" و"الباسك" قامت دولة بني ذو النون في "توليدو" (طليطلة) وبدأ صراع مع ملك"سرقسطة" ابن هود ولجأ الطرفان يطلبان مساعدة ملوك إسبانيا المسيحيين وكان هؤلاء يساعدون المسلمين علي بعض مقابل الحصول علي مال أو قلاع أو أراض أو مدن واستمر نزاعهما وبعد فترة صراعات بين البيت القشتالي انتهي بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان "الملك الفونسو السادس" وبعد أن استتب له الأمر فرض الحصار علي "توليدو" في ١٠٨٤ ولم يقم أحد بمساعدة إخوانهم المسلمين إلاَّ المتوكل ابن الأفطس الذي أرسل جيشا كبيرا لنجدة توليدو لكنه تعرض لهزيمة ساحقة ماحقة من الجيش المسيحي واستمر الحصار ٩ شهور إلى أن استبد الجوع بالناس ولم تفلح محاولات المسلمين الوصول

لتسوية ، ولم يرض الفونسو سوي بتسلم المدينة كاملة وفعلا تم ذلك في ١٠٨٥ وتوجه إلي المسجد الكبير الذي حوله إلي كاتدرائية وصلي فيه قداس الشكر وصارت العاصمة لملكة قشتالة الفرنجية وتم استردادها وتم منح المسلمين كافة الحرية لمغادرة المدينة أو البقاء فيها وحرية التصرف في أملاكهم.

نهاية الممالك الإسلامية في الأندلس :

انتفض المسيحيون لإرجاع أرضهم و تحريرها من المسلمين ، فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ ، وأشبيلية عام ١٢٤٨ وكان هذا بداية النهاية بسقوط دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ١٤٩٢ اتحدت مملكة ليون وقشتالة مع مملكة أراجون واستطاع الملك فيرنانديو والملكة إيزابيلا، استرجاع الممالك العربية في الأندلس الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت في أيديهم غرناطة آخر قواعد المسلمين سنة ١٤٩٢.

ما بعد السقوط :

وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب والقتل والنفي وبدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين ومن اليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت وقد تمسك أهل الأندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني و حسب الرواية القشتالية الرسمية،لم يُبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع النصراني و بقوا في معزل عنه، يقومون بشعائرهم الإسلامية و يدافعون عنها بكل تفان. و حتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجئوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية و أخفوا الإسلام، فكانوا يصلون و يصومون... كل ذلك خفية عن أعين الوشاة و المحققين.

وهكذا ضاع فردوس الأندلس:

ولنلق نظرة على حياة الأندلس المترفة ، وما كان فيها من رخاء وازدهار وحضارة ومظاهر نعمة وعيش رغيد :

من الناحية الاجتماعية:

أُفتن الناس في أنواع الطعام والغناء والطرب، وانشغلوا عن الاستعداد للجهاد، وكان من سن فيهم هذه السنة "زرياب" فأشغل الناس بابتكاراته في عالم الطعام واللباس، فلكل فصل نوع من الطعام واللباس، ولكل مجلس آداب وتقاليد ولكل حفلة طرب وغناء و(موسيقا) بمختلف الألحان ، ولقد تصدى العلماء لمحاربة الترف والإسراف .

من الناحية الاقتصادية:

نمت الزراعة نمواً مزدهراً، فتنوعت أشجار الفواكة والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز. كما نظم أقنية الري وأساليب جر المياه ، وجعل تقويما للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوروبا). وفي الصناعة جعلت المناجم، وطور أنواعها، الذهب والرخام والفضة والرصاص والنحاس، وتطورت صناعة الجلود، ومراكز خاصة لصناعة السفن وآلاتها، وصناعة الزيتون والأدوية، وفي زمنه ظهرت الأسواق الخاصة للبضائع فهناك سوق للنحاسين، وسوق للزهور والشحوم وسوق للزيتون.

من الناحية الثقافية:

إنّ الأشياء الداخلية من قصر الحمراء في إسبانيا مزيّنة بتصاميم الزخرفة العربية.

صارت قرطبة مركزاً للعلوم وإلا آداب، وانتشرت الثقافة وكثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، وبلغ عدد الكتب "٤٠٠٠٠٠" كتاب في مكتبة واحدة هي (مكتبة الحكم)، وبلغ عدد المكتبات "٧٠" مكتبة. ووضعت لها فهارس دقيقة وتصانيف عديدة، كما ظهر النساخون الذين كانوا يقومون بدور المطابع في عصرنا وظهر المجلَدون لتجليد الكتب والعناية بها وحفظها، وكان "عبد الرحمن الناصر" يُعرف بحبه للعلم والعلماء، وكان من أشهر العلماء القاضي عبد الله محمد بن محمد الذي اخذ العلم من مائتين وثلاثين شيخاً، كما ظهر القاسم بن الدباغ الذي نقل العلم عن مائتين وستة وثلاثين شيخاً، ولم يكتف بما أخذ من الأندلس بل سافر إلى المشرق لينهل من علومه، وكان من بين العلماء الأندلسيين الذين قدموا المشرق الإسلامي. و برز ابن عطية في التفسير، كما اشتهر في الفقه: الباجي وابن وضاح وابن عبد البر، وابن عاصم والمنذر بن سعيد في الفقه والحديث، وظهر بالفلسفة ابن رشد وابن مسرة القرطبي وبرز في اللغة ابن سيده صاحب المعجم، وأبو علي القالي صاحب الأمالي الذي تلقى تعليمه في بغداد ثم رحل إلى الأندلس فبلغ في [illegible] اللغة شأناً بعيداً هناك، وكتب ابن قوطية في التاريخ، وبرز فيها شعراء كثيرون مثل:

ابن هانئ الأندلسي :

الشاعر الرقيق ومتنبي الغرب هو ابن هانئ الأندلسي أو أبو القاسم محمد بن هانئ بن سعدون الأزدي الأندلسي (يتصل نس [illegible] بالمهلب بن أبي صفرة) الملقب

بـمتنبي الغرب لأنـه كـان أشعر شـعراء المغرب العربي على الإطلاق (وهـو معاصر للمتـنبي)، ولـد أبـوه هـانئ بقريـة مـن قـرى المهديـة بإفريقيـة (تـونس حاليـا) وكـان شاعرا أديبا فـانتقل إلى الأندلس. ولد ابن هـانئ بأشبيلية ونشأ بها وتعلم بهـا الشعر والأدب، واتصـل بصـاحب أشـبيلية وحظـي عنـده. واتهمـه أهلـها بمـذهب الفلاسـفة وفي شـعره نزعـة إسماعيليـة بـارزة، فخـرج إلى الـبلاد المغربيـة، ونمـي خـبره إلى المعـز الفـاطمي فـاستدعاه، فلما انتهى إليه وأقام عنده في المنصورية بقـرب القيروان، بـالغ في مدحـه بغـرر المدائح ونُخَب الشعر. كما امتدح أيضا جـوهر الصـقلي، الـذي فـتح مصـر للمعـــزّ، وتـوفي في رجـب ٣٦٢ هـ، وقيـل أنـه وُجـد في سـانية مـن سـواني برقـة مخنوقا بتَكّة سراويله ولما وصل خبر وفاته للمعزّ وهـو بمصر تأسـف عليـه وقـال: "هذا الرجل، كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يُقدّر لنا ذلك." [1] **قيل فيه**:

إن تكـــن فارســـا فكـــن كعلـــي	أو تكن شاعرا فكن كابن هـــاني
كل من بـــدَعِيّ بمـــا لـــيس فيـــه	كذّبتـــه شواهـــــدُ الامتحـــان

وقيل إنه ذو قريحة شاعرية ، ويجمع في شعره بين شجاعة المتنبي وتعبير أبي تمام ومعاني البحتري وفلسفة المعري فهو شاعر غربي أندلسي حذا حذو شعراء الشرق لذا فهو شاعر متفرد تتجلى فيه المقدرة الشعرية والصناعة اللفظية الفائقة .

ومن شعره :

ولمْ أرى شـــيئاً مثـــلَ وصـــلِ أحبّتـــيّ

شِفاءً ولكن كان بُـــرؤكَ لـــي أشـــفى

وكيــــفَ اتّراكــــي فيـــك بَثّـــاً ولوعَــــة

ولـــم تتــرك رحمـــاً لقـــومي ولا عطفـــا

أمنـــتُ بـــكَ الأيــــامَ وهــــي مخوفـــة

ولـــو بيـــديكَ الخلـــدُ أمّنتنـــي الحتفـــا

ويقول في المديح :

هـــذا الشـــفيعُ لأمّـــةٍ يـــأتيْ بهـــا

وجُـــدُودُهُ لجـــدُودِها شُـــفعاء

هـــذا أمـــينُ اللهِ بـــينَ عبـــادهِ

و بـــلادهِ إنْ عـــدَّتِ الأمنــــاء

هـــذا الّـــذي عطفـــتْ عليـــهِ مكـــة

وشـــعابها و الـــرُّكنُ والبطحــــاء

هـــذا الأغـــرُّ الأزهَـــرُ المتـــألقُ المــــ

ــــتدَفِّقُ المُتَـــبلِّجُ الوضّــــاء

فعَليـــهِ مـــن سِـــيما النبـــيّ دَلالَـــة

وعليـــهِ مـــن نـــورِ الإلـــهِ بَهـــاء

ويقول متغزلا :

(صـــبٌّ يـــذوبُ إلـــى لقـــاء مُذيبِـــهِ)

صبٌّ يـذوبُ إلـى لقـاء مُذيبِـهِ ... يستعذبُ الآلام مِنْ تعــذيبهِ

عمّى هواهُ عـن الوشـاةِ مُكتمـاً ... فجرَتْ مدامعُهُ بِشَـرْحِ غريبـه

كم لائمٍ والسـمعُ يدفـعُ لَوْمَـهُ ... والقلـبُ يـدْفعُ قلْبَـهُ بوجيبـه

ملكَ القلوب هوى الحسان فقل لنـا ... كيفَ انتفـاعُ جسـومنا بقلوبـه

وبم السلوّ إذا بدا لي مثـمراً ... خوطٌ يميسُ على ارتجاج كثيبـه

والشـوقُ يَزْخَـرُ بَحْـرُهُ بِقَبولـهِ ... ودبوره و شماله و جـنـوبه

وبنفسي القمر الذي أحيـا الهـوى ... وأماتَهُ بطـلوعِـهِ وغـروبه

قرّنوا بورد الخد عقرب صُـدغه ... وذَرَوْا ترابَ المسك فوق تريبـه

والعين حيرى مـن تـألق نـوره ... والنفس سكرى من تضوعِ طيبه

في طرفه مرض، ملاحتـه التـي ... ألقَـتْ علـيّ أنينَـهُ بكروبـه

أعيا الطبيب علاجه ، يـا سـحرهُ ... ألَديْكَ صَرْفٌ عن علاجِ طبيبـه

إني لأذكـره إذا أنْسَـى الـوغى ... قلبَ المحبِّ المحضِ ذكر حبيبه

لسان الدين بن الخطيب الشاعر المؤرخ الطبيب ، ذو الوزارتين:

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب شاعر وكاتب ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس .

- ولد في فاس عام ٧١٣ هـ /١٣١٣م .
- انتقلت العائلة إلى غرناطة حيث دخل والده في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف، وفي غرناطة درس لسان الدين الطب والفلسفة والشريعة والأدب.

ولما قتل والده سنة ٧٤١ هـ في معركة طريف كان مترجماً في الثامنة والعشرين، فحل مكان أبيه في أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجيّاب. ثم توفي هذا الأخير بالطاعون الجارف، فتولى لسان الدين منصب الوزارة.

ولما قتل أبو الحجاج يوسف سنة ٧٥٥ هـ وانتقل الملك إلى ولده الغني بالله محمد استمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة وبقي ابن الخطيب وزيراً.

ثم وقعت الفتنة في رمضان من سنة ٧٦٠ هـ، فقتل الحاجب رضوان وأقصي الغني بالله الذي انتقل إلى المغرب وتبعه ابن الخطيب وبعد عامين استعاد الغني بالله الملك وأعاد ابن الخطيب إلى منصبه. ولكن الحسّاد، وفي طليعتهم ابن زمرك أوقعوا بين الملك وابن الخطيب الذي نفي إلى المغرب حيث مات قتلاً سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م.

برع في الشعر، وتميز أسلوبه بالرصانة وجمال الصياغة، ونُقِشت أشعاره على حوائط قصر الحمراء بغرناطة.

ومن شعره :

الصبر إلا في هواك حميد
الخطب صعب والمرام بعيد
يا أيها القمر الحجازي الذي
تجلى بغرته الدياجي السود
وحدت شخصك في الفؤاد لعله
ينجيه من نار الجوى التوحيد
وجعلت حبك مذهبا وشريعة
قلدته يا حبذا التقليد

إن نالـــت الشــــهداء جنـــات العلـــى
ولهــــــــم نعـــيم عنـــدها وخلـــود
فلقـــد شـــهدت بـــأن قربـــك جنـــة
حقـــا وإنـــي بـــالغرام شـــهيد
يامن تشابه منـــه فـــي ضـــعف القـــوى
خصـــر وطـــرف ســـاحر وعهـــود
جسمي ولحظك فـــي الســـقام تشـــا كا
والله يعلـــــم أينـــــا المفـــــؤود
إن كنت تنكر مـــا ألاقـــي فـــي الهـــوى
فالوجـــه قـــاض والـــدموع شـــهود
أصـــبحت فـــي شـــغل بحبـــك شـــاغل
لا العـــــذل ينهـــــاني ولا التفنيـــــد
لا العـــــذل ينهـــــاني ولا التفنيـــــد
تهفو الصبا ســـحرا فأســـتجفي الصـــبا
وأغـــص بالسلســـال وهـــو بـــرود
وأميل عـــن ظـــل الأراكـــة ضـــاحيا
ورواقهـــا رحـــب الجنـــاب مديـــد
يا عهد عين الـــدمع كـــم مـــن لؤلـــؤ
للـــدمع جـــدت بـــه عســـاك تعـــود
تســـري نواســـمك اللـــدان بليلـــة

فيهزنــــي شـــوق إليـــك شـــديد

كـم سـاعة للأنـس فيـك قضـيتها

مـــن نالهـــا مـــا فاتـــه مقصـــود

ومجـــاذب ثنـــي الذؤابـــة عابـــث

تهفـــو بخوطتـــه الصـــبا فيميـــد

الســـقم مبثـــوث علـــى لحظاتـــه

والســـحر فـــي أجفانـــه معقـــود

نادمتـــه وشـــربت فضـــل مدامـــه

واللحـــظ مـــن أكواســـه معـــدود

ولقـــد هممـــت بـــأن أروي غلـــة

لجحيمهـــا بـــين الضـــلوع وقـــود

للكـــتم بـــاب مـــرتج مســـدود

كـــم لؤلـــؤ نثـــر الحـــديث عقـــوده

نظمـــت لشـــمل الـــود منـــه عقـــود

ولـــئن تحامانـــا الرقيـــب فلـــم يـــرم

عنـــا رقيـــب للعفـــاف عتيـــد

لولا هواك أيـــا أبـــا الشـــرف الرضـــا

مـــا كـــان عنـــدي للوجـــود وجـــود

إيـــه عميـــد الـــوحي غيـــر مـــدافع

قلبـــي بمـــا يلقـــاه منـــك عميـــد

إن بنـــت فاســـمح لـــي برجـــع تحيـــة

أو غبـــت فابعـــث بالخيـــال يعـــود

يـــا ابـــن الكـــرام الهاشـــميين الألـــى

البـــاس طـــوع بنـــانهم والجـــود

رفقـــا علـــى مهـــج تملكهـــا الهـــوى

فـــالرفق مـــن أخلاقكـــم معـــدود

ولاك ســـلطان الجمـــال نفوســـنا

فـــاحكم بمـــا ترضـــى فـــنحن عبيـــد

ولا يذكر العصر الأندلسي إلا وتذكر معه الموشحات ، ذلك الفن الذي يعكس حالة الرخاء ورغد العيش وما يكتنف المجتمع من دعة ورفاهية فهو نظام شعري تتنوع فيه القافية ، ويتغير فيه الشكل بين الغصن والقفل والخرجة ، وما يتضمنه من زينة لفظية تعكس حال البيئة الأندلسية التي كانت ترفل في وشي من النعمى والدعة .

وعن تسمية الموشح بهذا الاسم :

فالموشح مشتق من كلمة وشح أي زين ، وسميت بالموشحات لما فيها من تزيين وتنميق وتناظر وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر

وعن بناء الموشح:

- تختلف الموشحات عن القصائد العربية من حيث البناء إذ يتألف الموشح من أجزاء مختلفة اصطلح النقاد على وضع مسميات لها ، **وهذه الأجزاء هي:**

- ❖ المطلع .
- ❖ القفل .
- ❖ الدور.
- ❖ السمط .
- ❖ الغصن .
- ❖ البيت .
- ❖ الخرجة.

ومن الوشاحين الأندلسيين المشهورين :

ابن سهل الأشبيلي، ابن بقي الأعمى التطيلي ، لسان الدين بن الخطيب عبادة بن ماء السماء ، ابن سناء الملك ، ابن زهر، محيي الدين بن العربي ، وغيرهم من الوشاحين .

وهذا نموذج لموشحه، لابن سهل الأشبيلي، يقول:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس؟

إني لأنكره إذا أنْسَى الوغى قلبَ المحبِّ المحضِ ذكر حبيبه

فهو في حر وخفق مثلما

لعبت ريح الصبا بالقبس

***

يا بدورا أطلعت يوم النوى

غرورا تسلك في نهج الغرر

ما لعيني وحدها ذنب الهوى

منكـــــم الحســـن ومـــن عينــــي النظــــر

أجتنــــي بالـــذات مـــكــــروه الجـــوى

والتـــذاذي مـــن حـــبيبــي بـــالفكــــر

وإذا أشكوه وجـدى بـسـمــا   كالربى و العـارض المنـبجس

وإذ يقيم القطــر فيهـــا مأتمــا   وهي مـن بهجتهــا فــي عرس

مـــن إذا أمـلـــى عـليــــه حرقـــى

طـــارحتنـــي مـــقلتــــاه الدنفـــا

تــركـــت ألحـــاظه مـــن رمـقـــي

أثـــر النمـــل علــى صـــم الصـــفا

وأنـــا أشـــكـــره فيمـــا بقـــى

لســــت ألحــــاه علـــى مــــا أتلفـا

***

وهو عنـدي عـادل إن ظلمــا   ونصيحي نطقه كـــالحـــرس

ليس لي في الأمـر حكـم بعـد مـا   حـل مـن نفسي محـل النفس

***

غــــالب لــــي غــــالب بـــــالتـــؤده

بأبـــي أفديــــه مـــن جــاف رقيـــق

مــــا علمنــــا قــبل ثــغر نضـــده

أقحوانــــا عصــــرت منــه رحيــــق

أخـــذت عينـــاه منـــه العربــــده

وفـــؤادي ســكره مــــا إن يفيــــق

فاحم اللمـــة معســـول اللمــى ســاحر الغنــج شهي اللعـــس

وجهه يتلــو الضحــــى مبتســما وهو من إعراضــه في عبــس

***

أيهــا الســـائل عــن جرمــي عليـــــه

لــــي جــــزاء الــذنب وهــو المذنـــب

أخـــذت شـــمس الضـــحى مـــن وجنتيـــه

مشرقـــا للـــشمـــس فـــيـــه مغـــــرب

ذهبـــت دمعـــــي أشــواقـــي إلـــيـــه

وله خـــذ بلحـــظـــــي مـــذهـــــب

***

يــنبت الورد بغسرســي كلمـــا لحظته مقلتي في الخـلــــس

ليت شــعري أي شـــيء حرمـــا ذلك الورد على المــغتـــرس

***

أنـــــفدت دمعــــــي نــــــار بــــي

ضرامتــــلتظـــي فـــي كـــل حين ماتشـــا

هـــي فـــي خـــديـــه بـــرد وســـــلام

وهــــــي ضـــر وحريـــــق فـــي الحشـــا

أتــقـــي منه علـــــى حـــــكم الغــــــرام

أســــــدا وردا وأهــــــــواه رشـــــا

قلت لمـــا أن تبـــدي معـــلـــمـــا لحظتـــه مقلتـــي فـــي الخلـــس

ليت شـعري أي شـيء حرمـا ذلك الورد علـى المغتـرس

وهـو مـن ألحـاظه فـي حـرس

أيهـا الآخـذ قـلـبـي مغـنـمـا

اجـعـل الوصـل مكـان الخمـس

تأمل ما في الموشح من جمال تصوير، وحلاوة صياغة ، وفصيح أسلوب .

ويا لجمال أندلسنا الذي ضاع !!!!!!!

وهذا موشح آخر :

زمان الوصل

لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيــث إذا الغيــث همــى   يــا زمان الوصل بـــالأندلسِ

لـــم يكن وصـــلك إلاّ حُلُمًـــا   في الكـــرى أو خُلسة المختلِسِ

****

إذ يقـــود الدّهـــرُ أشـــتاتَ المُنـــى

ينقـــلُ الخـــطوَ عـــلى مـــا يرســـمُ

زُمَـــرًا بيـــن فُـــرادى وثُنَـــى

مثـــل مـــا يدعـــو الوفـــودَ الموْسـِـمُ

والحيـــا قـــد جـــلَّل الـــرّوض ســـنا

فثغـــور الزّهـــرِ فيـــه تبســـمُ

وروى النُّعمانُ عـــن مـــاء السّـــما   كـــيف يَـــروي مالِكٌ عن أنَسٍ؟

فكساه الحُســن ثوبًـــا معلمـــا   يـــزدهي منه بـــأبهى مَلبسِ

فـــي ليـــالٍ كـــتَمَتْ ســـرَّ الهـــوى

بـــالدُّجى لـــولا شـــموس الغُـــرَرَ

مـــال نجـــمُ الكـــأس فيهـــا وهـــوى

مســـتقيمَ السّـــيرِ سَـــعْدَ الأثـــرِ

وطَـــرٌ مـــا فيـــه مـــن عيـــبٍ ســـوى

أنّـــه مـــرّ كـــلا ح البصَـــرِ

حـــين لـــذا الأنـــس شـــيئا أو هجم الصّبحُ هجـــومَ الحــرَسِ
غــارت الشهْبُ بنـــا أو ربّمـــا أثّــرت فينا عيــون النرجـــسِ

أيّ شــــيءٍ لامْـــــرئٍ قــــد خلُصـــا
فيكـــون الـــرّوضُ قـــد مُكّـــن فيـــهِ
تنهـــب الأزهـــار فيـــه الفُرصـــا
أمِنَـــت مـــن مكـــره مـــا تتّقيـــهِ
فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحـــصى
وخـــلا كـــلّ خـــليلٍ بأخيـــه

تبصــر الـــوردَ غيـــورًا بَرِما يكتسي من غيظه مــا يكتســي
وتَــرى الآس لبيبًــا فهِمـــا يســرقُ السمْع بأذنيْ فـــرَسِ

يــا أُهيْــلَ الحــيّ مــن وادي الغـــضـا
وبقلبـــي ســـــكَنٌ أنتـــم بـــهِ
ضــاق عــن وجــدِي بِكُــم رحْــبَ الفضــا
لا أبـــالي شــــرقَه مـــن غربـــهِ
فـــأعيدوا عَهْـــدَ أنسٍ قـــــد مضى
تُعتِقـــوا عنـــيكمُ مـــن كـــــربـــهِ

****

واتّقـــوا الله وأحـــيوا مغرمَـــا يتلاشى نَفَسًـــا فــــي نَفَسِ
حـــبَس القلـــب علـــيكم كَرمـــا أفـــترضون عفـــاءَ الحـــبَسِ ؟

****

وبقلبي منكمو مقتربُ
بأحاديث المنى وهو بعيد
قمرٌ أطلع منه المغربُ
شَقْوة المُغرَى به وهو سعيد
قد تساوى محسنٌ أو مذنبُ
في هواه بين وعْدٍ ووعيد
ساحر المقلة معسول اللّمى جال في النّفس مجالَ النّفَسِ
سدّدَ السّهمَ فأصمى إذ رمى ففؤادي نهْبة المفترسِ

****

وكان للشاعرات الأندلسيات نصيب في هذه النهضة الشعرية ، فأدلت كثيرات منهن بدلوها ، وأخرجت لنا قصيدًا عذب اللفظ ، جميل الصورة حلو الصياغة من رقيق الحاشية ، **ومن شواعر الأندلس** :

- عائشة القرطبية .
- نزهون الغرناطية .
- حفصة بنت حمدون الحجازية .
- بثينة بنت المعتمد بن عباد .
- حسانة التميمية .
- مريم بنت يعقوب الأنصارية .

ومنهن :

الشاعرة حمدونة :

هي حمدونة بنت زياد المؤدب نشأت في وادي آش بالقرب من غرناطة ولقبت بشاعرة الأندلس وكان للبيئة والطبيعة التي نشأت فيها تأثيرًا قويًا على أسلوبها في الشعر فقد رسمت أجمل الصور وهي تصف واديها (وادي آش) الذي نشأت وترعرعت فية وخلعت علية من احساسها ومشاعرها الرقيقة أجمل مايوصف بة واد فتنشد في وصف ذلك الوادي قائلة :

وقانـــا لفحـــةُ الـرمضـــاء وادٍ
ســـقاهُ مُضـــاعف الغيـــثُ العمـــيم
حللنـــا دوحـــةُ فَحَنـــا عَلَيْـنـــا
حنـــوٌ المُرضِـــعاتِ علـــى الفَطِـــيم
وارشَـــفَنا علـــى ظـــمـــأٍ زُلالاً
الـــذُّ مـــن المَدامـــةِ للنـّديـــم
يصـــدُّ الشَّـــمسَ انَّـــى واجَهَتْـنـــا
فيحجُبـــها ويـــأذن للنســـيـــم
تـــروعُ حصـــاه حاليـــةُ العـــذارى
فـــتَلمَسُ جـــانبِ العقـــدِ النظـــيم

وفي قصيده أخرى تصف واديها الجميل بالقول:

أبـــاح الدمـــعُ أســـراري بِـــوَادي
لهُ للحســـنِ أثـــارِ بَـــوَادي
فمـــن نهـــرِ يطـــوفُ بكُـــلِّ روضٍ

ومـــــن روضٍ يـــــــــرفُّ بكُــــلِّ وادي

ومـــــن بـــينِ الضِّبـــــاءِ مَهـــاةُ أنـــسٍ

سَـــبَت لُبِّـــي وقَـــــد مَلَكـــت فُـــؤادي

لهـــا لحـــــظٍ تـــرقّـــدهُ لأمــــــــرٍ

وذاك الأمـــــــرُ يمنعنـــــي رُقـــــادي

إذا سَدَلــــــــت ذوائبُـــــــها عليهـــــــا

رأيـــتُ البَـــــدرَ فـــي أفُـــقِ السَّـــوادِ

كـــأن الصـــبح مـــاتَ لـــهُ شقيـــــقٌ

فمـــــن حُـــزن تَسَـــربلَ بالســـــــوادِ

ولادة بنت المستكفي :

ولاّدة بنت المستكفي أميرة أندلسية وشاعرة عربية من بيت الخلافة الأموية في الأندلس، ابنة الخليفة المستكفي بالله تعالى . اشتهرت بالفصاحة والشعر، وكان لها مجلس مشهود في قرطبة يؤمه الأعيان والشعراء ليتحدثوا في شؤون الشعر والأدب بعد زوال الخلافة الأموية في الأندلس.

- ولدت في قرطبة عام ٩٩٤ هـ /١٠٩١م
- كانت أمها جارية إسبانية اسمها سكرى و قد ورثت منها بشرتها البيضاء وشعرها الأصهب وعينيها الزرقاوين. وكانت تخالط الشعراء في زمانها وتجالسهم بل وتنافسهم.
- أحبها ابن زيدون وكتب فيها نونيته المشهورة .
- وقد عمرت عمرًا طويلاً، ولم تتزوج .

ومن شعرها :

ألا هَـل لنـا مـن بعـد هـذا التفـرّق
سـبيلٌ فيشـكو كـلّ صـبّ بمـا لقـي

وَقـد كنـت أوقـات التـزاورِ فـي الشـتا
أبيـتُ علـى جمـرٍ مـن الشـوق محـرق

فَكيـفَ وقـد أمسـيت فـي حـال قطعـة
لَقـد عجّـل المقـدر. مـا كنـت أتّقـي

تمـرُّ الليـالي لا أرى البـين ينقضـي
ولا الصـبر مـن رقّ التشـوّق معتقـي

سَـقى اللّـه أرضـاً قـد غـدت لـك منـزلاً
بكـلّ سـكوب هاطـل الوبـل مغـدق

****

وكما كان الأندلس يغص بالشعراء والأدباء ، فقد كان يموج بالعلماء والفلاسفة والمبدعين في شتى المجالات ، ومن هؤلاء العلماء البارزين .

ابن رشد (فيلسوف العرب)

وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي وكنيته أبو الوليد " الحفيد " المولود في قرطبة عام (٥٢٠- ٥٩٥ -1198-1126م ، من أسرة عرفت بالعلم والجاه .

- وابن رشد ظاهرة علمية مسلمة متعددة التخصصات، فهو فقيه مالكي وقاضي القضاة في زمانه.

وقد برع في الطب تفوق على أساتذته حتى أن أستاذه ابن زهر قال عنه:

-"ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس".

- وهو فيلسوف عقلاني، ترجم أعمال أرسطو للمسلمين.

- وهو أيضا فلكي له أعمال فلكية جليلة .

- كما كان نحويا لغوياً محدثاً بارعاً يحفظ شعر المتنبي .

أما سماته وخلقه :

فقد كان متواضعاً ، جم الأدب، حلو المعشر ، راسخ العقيدة يحضر مجالس حلفاء الموحدين وعلى جبينه أثار ماء الوضوء .

وابن رشد من أهم فلاسفة الإسلام، فقد دافع عن الفلسفة وصحح أقوال علماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابي في فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو- عينه أبو يعقوب خليفة الموحدين عام ١١٨٢م طبيبا له ثم قاضيا في قرطبة،لكن الحكمة والسياسة وعزوف الخليفة الجديد أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٩٨ - ١١٨٤) عن الفلاسفة، بالإضافة إلى دسائس الأعداء والحاقدين جعل المنصور ينقلب على ابن رشد، قاضي القضاة وطبيبه الخاص ، ويتهمه مع ثلة من مبغضيه بالكفر والضلال ثم قام بحرق جميع مؤلفاته الفلسفية وحظر الاشتغال بالفلسفة والعلوم جملة، ما عدا الطب، والفلك، والحساب.

وبعدها عاد الخليفة فرضي عن أبي الوليد ابن رشد وألحقه ببلاطه، حتى توفي في عام١١٩٨م في مراكش.

علي بن حزم الأندلسي

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي والأصح أنه عربي من أكبر علماء الأندلس ، ولد في قرطبة عام ٣٨٤ هـ وهو إمام حافظ. فقيه ، ومتكلم، أديب، وشاعر، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف.

- عمل وزيرًا لبني أمية، قامت عليه جماعة من المالكية وشُرد عن وطنه.

توفي سنة ١٠٦٤ م، في منزله في أرض أبويه.

كان ابن القيم شديد التتبع لآثار وكتب ابن حزم، وكان يصفه بمنجنيق العرب، أو بمنجنيق الغرب. وكانت الناس تضرب المثل في لسان ابن حزم، فقيل عنه:

« سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان »، فلقد كان ابن حزم يبسط لسانه في علماء الأمة وخاصة خلال مناظراته مع المالكية في الأندلس، وهذه الحدة أورثت نفورًا في قلوب كثير من العلماء عن ابن حزم وعلمه ومؤلفاته، وكثر أعداؤه في الأندلس ، واستطاعوا أن يؤلبوا عليه المعتضد بن عباد أمير أشبيلية، فأصدر قراراً بهدم دوره ومصادرة أمواله وحرق كتبه، وفرض عليه ألاّ يغادر بلدة أجداده وألا يفتي أحد بمذهب مالك أو غيره، كما توعد من يدخل إليه بالعقوبة، وهناك توفي ولما فعلوا ذلك بكتبه تألم كثيراً **فقال وقد حُرّقت مؤلفاته:**

إن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يقـيم معـي حيـث اسـتقلت ركـائبي

وينزل إن أنزل ويـدفن فـي قبـري

• قال عنه ابن خلكان :

« كان حافظا عالما بعلوم الحديث مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متقنا في علوم جمة عاملاً بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة ، متواضعا ذا فضائل وتأليف كثيرة".

• مؤلفاته :

هو أكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري - كتاب طوق الحمامة في الأدب ، وألف كتبا كثيرة في الفقه وفي أصوله ومنها :

- جوامع السيرة نشر عدة مرات .
- رسالة في القراءات المشهورة في الأمصار.
- رسالة أسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد من العدد .
- رسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا .
- رسالة جمل فتوح الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.
- الإحكام في أصول الأحكام .
- النبذة الكافية في أحكام أصول الدين وهو مختصر للأحكام .
- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات .
- إبطال القياس والرأي والتقليد .

- رسالة ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل .

• حجة الوداع .

وبعد فهذه هي الأندلس وما كان فيها من حضارة وازدهار، وقد ضاعت فصارت حلما نسترجع ذكراه بين الحين والحين، ولم يبق منه إلا طيف يراوحنا .

رحم الله أيام الأندلس .

دقة التعبير القرآني

للتعبير القرآني دقة فائقة لا تراها في نص إلا في كتاب الله عز وجل ومثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الكهف:٣٢]

انظر إلى التعبير بكلمة " حففناهما " تجدها أدق في المعنى وأجمل من أحطناهما ، ذلك أن الإحاطة تعني تسديد كل ثغرة ، لا مجال للتنفس ، وفي الإحاطة شمول وغلظة ، أما حففناهما ففي التعبير رقة ، وفي الحفيف متنفس ، وفرصة لدخول الهواء والتنفس .

أما في قوله :

﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:٢٩]

فهي مناسبة لأن جهنم تحاصر الكافرين من كل جانب فلا مهرب ولا متنفس .

فما أروع تعبير القرآن !

وفي قوله تعالى

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[سورة الأنبياء:٩٠]

تأمل الدقة في التعبير بالفعل (أصلحنا) تجده لا ينفع مكانه الفعل (شفينا) ، لأن العقم ليس مرضا ولا علة ، إنما هو خلل يحتاج إلى إصلاح .

وفي الآية نفسها تأمل روعة التعبير بالفعل (يسارعون) في موضعه لأن فعل الخير لا يحتاج إلى تباطؤ ، وفي استخدام الفعل في هذا الموضع تحفيز وحث لا على فعل الخير فحسب بل على المسارعة في تقديمه والقيام به .

وفي قول الله تعالى :

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الجن:١٦]

تجد الدقة في التعبير بالفعل (أسقيناهم) بزيادة الألف في أوله للتفريق بينه وبين الفعل (سقى) ، ذلك لأن الفرق بين الفعلين يكمن في أن(سقى) ليس فيه جهد **كما في قول الله تعالى :**

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الإنسان:٢١]

وفي قوله :

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة المطفِّفين:٢٥]

أي يقدم لهم بدون جهد أو تعب وهم أهل الجنة جزاء وفاقا بما عملوا من صالحات في الدنيا ، أما قول الله تعالى(أسقيناهم) فتعني : أعطيناهم بعد البذل والعمل في الدنيا ، وذلك لأن الاستقامة مقرونة بالبذل والعمل والسعي ، فما أجمله من تعبير! وما أجملها من دقة متناهية ، **وصدق القائل في علاه :**

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [سورة هود:١]